ليو تولستوي

البعــث

رواية

تقديم وتحرير

صبحي جلال

الكتاب: البعث (رواية)

الكاتب: ليو تولستوي

تقديم وتحرير: صبحي جلال

الطبعة: ٢٠٢١

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)



٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور - الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف: ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس: ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www.bookapa.com E-mail: info@bookapa.com

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة: لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

تولستوي، ليو

البعث / ليو تولستوي، تقديم وتحرير: صبحي جلال

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٩٣ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولي: ٢ – ١٣٤ – ٩٩١ –٩٧٧ –٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع: ٤٤٠١ / ٢٠٢١

البعث



تقديم

وُلِدَ ليف نيكولايافيتش تولستوي في التاسع من شهر سبتمبر عام ١٨٢٨ ورغم أن والدته توفت وهو في عمر العامين، وفقد أبوه في التاسعة، التحق وهو في السادسة عشرة بجامعة كازان، ولكنه لم يحصل على درجة علمية، وحاول في عام ١٨٤٩ أن يؤسس مدرسة لتعليم الفلاحين، لكنه لم يفلح، التحق بالجيش عام ١٨٥١ وحارب في القوقاز، وشارك في الدفاع عن سباستيو عام ١٨٥٤ وأمدته تجاربه في هذه الحرب بالمادة التي أخرج منها فيما بعد «الحرب والسلام» و نشر أول جزء من سيرته بعنوان «طفولتي» عام ١٨٥٢ وهو في القوقاز، وتبعه الجزء الثاني «الصبا» عام ١٨٥٤ والثالث «الشباب» عام ١٨٥٧.

ترك الجيش عام ١٨٥٥ وحاول مرة ثانية إنشاء معهد لتعليم الفلاحين عام ١٨٥٩ لتحريرهم من نير الطغيان والاقطاعية، ولكنه فشل أيضا.

ما بين عامي ١٨٥٧ – ١٨٦٠ زار غرب أوروبا، وهناك بدأ يشك في أسس الحضارة الحديثة نفسها، وتزوج «صوفيا اندريفنا» عام ١٨٦٢، واستقر في مقاطعته التي يملكها نحو خمسة عشر عاما، أنجب فيها ذرية عديدة.

ألف «القوقاز» عام ١٨٦٣ و«الحرب والسلام» بين عامي١٨٦٥ – ١٨٦٩ وهي ملحمة نثرية تدور حول حروب نابليون، وقد صور فيها عدة شخصيات أبدع تصويرها، وعرض فيها فلسفته في التاريخ التي تقلل من شأن الدور الذي يلعبه الفرد فيه.. كذلك ألف رواية «آنا كارنينا» التي على الرغم

من تصويرها الواقعي لمدينة بطرسبورج فإنها تهتم برسم الصراع الباطن في الشخصيات.

كان له الكثير من الأعمال الانسانية والخيرية، حيث أنشأ مدرسة لتعلم أبناء المزارعين، كما أنشاء مجلة تربوية أطلق عليها اسم "ياسنايا بوليانا"، وكانت توزع بالمجان وكان الهدف منها تعليم الأهالي التنشئة الصحيحة للأطفال، وكان تولستوي مهتما بإعادة إدماج الأشخاص الذين تسربوا من التعليم في المدارس وأيضًا الاهتمام بحل مشكلات المزارعين في روسيا.

ويعد عام ١٨٧٩ مفرقا في حياته، حيث أخذت الشكوك التي كانت تنتابه منذ شبابه تزداد حدة، ومر بأزمة روحية كانت نتيجتها ارتداده إلى الايمان بالمحبة المسيحية، وإلى اعتناقه مبدأ المقاومة السلبية للشر، وسجل الخطوات التي مر بها حتى بلغ الايمان في كتابه «اعترافاتي» عام ١٨٧٩وقضى بقية حياته يدعو الى إيمانه الجديد، ويحاول تطبيق مبادئه التي عرضها في عدة مؤلفات منها «عرض مجمل للكتاب المقدس» عام ١٨٨١ و«ما أؤمن به» عام ١٨٨٢ و«ماذا يجب علينا أن نصنعه إذن؟» عام ١٨٨٦ و«قانون المحبة القوة» عام ١٩٠٨.

وقد لعبت الاعتبارات الأخلاقية والاجتماعية دورا أساسيا في مؤلفاته التي ألفها بعد ارتداده، وأهمها «موت أليتش» عام ١٨٨٤ ومسرحية «قوة الظلام »عام ١٨٨٦ و«كرويتسر سوناتا ١٨٨٩» ومقالة النقدي «ما الفن؟» عام ١٨٩٧ – ١٨٩٨ الذي يؤكد فيه المسؤولية الخلقية الملقاة على عاتق الفنان، ويهاجم فيه روائع الفن العالمي، بما فيها رواياته التي من أهمها:

«الحـاج مـراد» عـام ١٨٦٩ – ١٩٠٤ و«البعـث» عـام ١٨٨٩–١٩٠٠ ومسرحية «الجثة الحية» عام ١٩١١.

ولقد أدى إصراره على تطبيق مبادئه في حياته، وتصميمه على التخلي عن جميع ممتلكاته على نشوب خلاف خطير بينه وبين زوجته، وانضم اولاده إليهـا، فيمـا عـدا ابنتـه الصـغرى «الكسـندرا» التـي صـاحبته حينمـا تـرك بيتـه عام١٩١٠، ووافته المنية في نفس العام، وهو في محطة للسكك الحديدية.

وتـوفي تولسـتوي فـي ٢٠ نـوفمبر عـام ١٩١٠ عـن عمـر تجـاوز الثانيـة والثمـانين عاما إثر إصابته بالالتهـاب الرئوي، وذلـك بعـد أن قـرر الهـرب مـن حيــاة التــرف والعــيش وســط الحقــول مــع المــزارعين، ودفــن فــي حديقــة ياسنايا،بعيدًا عن مقابر النبلاء الخاصة بعائلته.

البعث

غالبـا مـا يوصـف "ليـو تولسـتوي" بأنـه النبـي الروائـي، الـذي كتـب لـه أن يشتهر بالرسالة، فينتهي الأمر بخلوده بالرواية دون الفلسفة الاجتماعية، التي يحسب له فيها صدق النية ونقاء القلب، أما رواية (البعث) التي نشرها في عـام ١٨٩٩ فتعـد مـن أهـم الروايـات فـي تـاريخ الأدب الروسـي، وكانـت آخـر رواية نشرت له في حياته، ويرسم فيها صورة عن التحولات النفسية التي قد تحدث للفرد بسبب الانخراط في مجتمعات ذات طبيعة طبقية مثل ما حدث في روسية خلال الحرب العالمية، حيث يتناول تولستوى أحداث الرواية من خلال أبطال الرواية وهم:

ديمتري إيفـان نيكلينـدوف أو ديمتري إيفـانوفيتش وهـو شـاب فـي مقتبـل العمـر مـن طبقـة النبلاء، كـان نموذجًـا للشـاب المثـالي مهتمًـا بـالعلم ومسـاعدة

الآخرين،ولكن بعد التحاقه بالحياة العسكرية يستيقظ في داخله وحش، فيغرق في حياة الخطيئة،حيث تسرد الرواية المحاولات الجادة لديمتري للخلاص من حياة الخطيئة والذنوب التي أصبح فيها.

وكاترين ماسلوفا الفتاة التي جمعته بها علاقة حب وهي من طبقة بسيطة للغاية، ويتناول الكاتب التحولات التي حدثت لحياة الشاب ديمتري إيفان نيكليندوف، حيث يصف الكاتب حياة الشاب في بداية الرواية بأنها كانت حياة هادئة مليئة بالخير ونفع الآخرين على عكس أبناء طبقته، وكان يهتم بمساعدة الآخرين أو تحصيل العلم وهذه فقط هي المجالات التي ينفق بها أمواله، وبسبب اختلاطه بهذه الطبقة لم يشعر أحد انه من النبلاء أو يتعامل مع الآخرين بطبقية أو ما شبه ذلك، بل إنه وقع في حب فتاة بسيطة من هذا المجتمع الفقير وهو ابن الصفوة.

ولكن حياة نيكليندوف تتغير تمامًا بمجرد التحاقه للخدمة العسكرية، ويصف الكاتب الحياة العسكرية في ذلك الوقت بأنها مدعاة الشر، حيث تغيرت طباعه تمامًا وتحولت مائة وثمانون درجة، فقد أصبح يملك كل طباع أبناء طبقته من تعالي ومعاملة سيئة لأصحاب الطبقات الأقل وعدم مساعدة الغير، فأصبحت كاترين ماسلوفا هي المجني عليها بسبب هذه التغيرات.

أما كاترين ماسلوفا هي المحور الثاني الذي يقدم تولستوي من خلالها الوجه الآخر للرواية، حيث ولدت في أسرة فقيرة في الريف الروسي، وقد توفى والدها ووالدتها وهي صغيرة وانتقلت للعيش مع خالتها وربطتها علاقة حب بنيكليندوف قبل أن يلتحق بالحياة العسكرية، وكانت الفتاة ترى الشاب

النبيل هو المثال الحقيقي للرجل الرائع الذي يساعد الآخرين طوال الوقت حتى لو كان ذلك على حساب نفسه.

وتتغير الرواية تمامًا بعد أن يقابل بنيكليندوف كاترين بعد فترة غياب وتصدم فيه الفتاة بعد أن يعتدي عليها جسديًا ويترك لها مبلغا قليلا من المال كتعويض عما فقدته الفتاة، مما يحدث لكاترين صدمة كبيرة في كل من حولها فتتحول إلى شخصية ضائعة ترتكب كل أشكال الأعمال المنافية للأدب، ويقرر بنيكليندوف ترك الحياة العسكرية بعد أن يندم عن كل أفعاله ويعمل في القضاء، وبعد فترة من الزمن يتفاجأ بكاترين تدخل عليه قاعة المحكمة هي وشخصين آخرين بعد أن تم اتهامهم في جريمة قتل، ولكن بنيكليندوف يحاول بكل الطرق أن يبرئ كاترين من التهمة الموجهة لها بسبب شعوره بالذنب وأن فعلته القديمة هي التي دمرت حياتها، وبالفعل ينجح في تبرئتها ويتزوجها في نهاية الرواية.

قصة ضمير

عند قراءة الرواية سوف تشعر بمشاعر معقدة تجاه بطل القصة المعذب بعد قراراته الخاطئة وأخطاء فترة الشباب التي وقع فيها ومحاولاته البائسة للخلاص والغفران، تعد أيضًا عرضًا لاذعًا للقرارات والأحكام التي لا تعد ولا تحصى والمعدة مسبقًا والمتحيزة في نظام العدالة الذي هو من صنع الإنسان، وتستكشف لنا هذه الرواية فلسفة الاقتصاد التي أصبح تولستوي أحد المدافعين عنها إلى نهاية حياته.

وكـان «تولسـتوي» قـد اعتـرف قبيـل وفاتـه لصـديقه المقـرب وناشـره «بيروكوف» بأنه كان قد أغوى في شبابه خادمة صغيرة السن، ثـم تخلى عنها هو وأهله، فماتت تحت وطأة اليأس والبؤس.. تلك الذكرى الأليمة ظلت تلاحقه حتى دفعت به إلى أن يحاول كتابة قصة تتناول هذا الموضوع، على ضوء ما انطبع في نفسه، وفي يوم الخامس عشر من عام ١٨٨٩ كتب في مذكراته «بدأت أمس كتابة قصة طويلة، وإنني لأجد في تدوين أحداثها متعة كبيـرة»، ولكنـه لـم يكـد ينتهـي مـن كتابـة الفصـل الأول منهـا، حتـى توقـف وأهملها تماما، وبعد خمس سنوات صادف أنه كان يبحث في أحد أدراج مكتبه، ففوجئ بالأوراق القديمة التي كان قد كتبها من تلك القصة، وما إن قرأها حتى استيقظ اهتمامه بها، وعكف على إنجازها، وجعل عنوانها« قصة ضـمير». لـم ينشـر تولسـتوي قصـته هـذه، واحتفظ بمخطوطتها لديـه، وتـابع تطوراته بالمسائل الاجتماعية والدينية، ولهذا أخذ يجري على قصته التعديل بعد التعديل، حتى استقر على شكل نهائي لها بعد أربع سنوات، كتبها أثناء تلك السنوات تسع مرات، وفي كل مرة كان يبدل ويغير في سياقها وأحداثها، حتى دفعها إلى النشر في صورتها النهائية وسماها «البعث» ولم تكن تحمل شيئا من ملامح القصة الأولى «قصة ضمير» كل شيء تغير فيها، البداية والنهايـة، والإطـار العـام، والتحليـل النفسـي للأبطـال، بـل وأسـماء اغلـب شخصياتها، ونتلمس عمق معاناة تولستوي، ضميره النزيه تماما، يتراءى ذلك في تجربة حياته وأدبه.

ويظهر لنا أن بطل القصة «نيكلودوف» يواجه موقفا مشابها لما يعانيه هو شخصيا، ذات المعاناة التي جعلت تولستوي في حياته الواقعية يختار نهايته ليقضيها في العزلة والصمت، وأن يموت مثل أي انسان عادي بين

جموع الناس البسطاء، لكننا نجده يضع نهاية مختلفة عن نهايته هو، لبطل قصته نيكلودوف، نهاية معكوسة تماما، رغم أن خلف ذلك فعالية روحية متطابقة في الكد للانتصار على الأنانية وتوسعا لمحبة لتشمل الانسانية قاطبة في مسعى من سلوك إنساني يسعى إلى الخير بكل حزم وإصرار.

في يوم ٢٨ تشرين اول من عام ١٩١٠ وتولستوي يبلغ الثانية والثمانين من عمره، استيقظ صباح ذلك اليوم وركب عربته وتوجه إلى محطة القطار، كان يريد الرحيل، ترك لزوجته كلمة قال فيها: «اني لأهجر هذه الحياة لأقضي ما تبقى من أيامي في العزلة والصمت»، وتوجه إلى دير كانت تشرف عليه شقيقته التي تقاربه في السن، تبعته ابنته لتعيده إلى المنزل لكنه رفض، وفي الرابع من تشرين ثاني مات بهدوء بين الناس في المحطة كأي شخص فقير كما كان يتمنى.

المشهد في ختام حياة تولستوي، ارتسم بعد أن أنجز تولستوي خطوطه وألوانه، محققا إنجازاته الهائلة على صعيد الواقع، وعلى صعيد الأدب في نفس الآن.. بأن هجر الحياة ليقضي ما بقي من أيامه في العزلة والصمت، بعد أن وزع أملاكه على الفلاحين وأخذ يكسب ما يعينه على العيش بكده في العمل وبعرق جبينه، وليضيء الطريق فعلا أمام أعين الناس جميعا والانسانية قاطبة، ففي ختام حياته توهج ضميره بنور الكون وسطع في الوجود نور إنساني متجدد لايفنى بفناء الجسد.

صبحي جلال

الفصل الأَول

غياهب السجون

تلقى مدير سجن موسكو أمرًا يقضي بتقديم امرأتين ورجل إلى ساحة القضاء في الثامن والعشرين من ابريل، وانصياعًا لهذا الأمر ذهب كبير السجانين في الساعة الثامنة من ذاك اليوم إلى الدهليز الذي تنتظم على جانبيه زنزانات المقبوض عليهن على ذمة المحاكمة، فبرزت له امرأة على رأسها شعر أتى على سواده بياض الشيب، وسطر الوهن على معارف وجهها آيات بينات، وعلى جسدها ثوب أزرق توشي أكمامه شارة السجن، فتبعت كبير السجانين في خطو متئد، وتلك هي السجانة الموكلة بالنساء. وسألته بصوت متسلخ وهي تقف معه عند إحدى الزنزانات المتراصة على الجانبين:

– أهي "مسلوفا" من تريد؟

ولم يجب كبير السجانين، بل أولج في الباب مفتاحًا من مفاتيحه الكثيرة، فصدر عن حركته فيه صرير ثم انفرج الباب فنفذت منه إلى الأنف رائحة مؤذية غلبت الرائحة الشديدة التي تسود الدهليز الخارجي أصلًا. وصاح كبير السجانين:

– "مسلوفا"! إلى المحكمة..

ثم أقفل الباب مرة أخرى وأقام ينتظر بضع دقائق في ذلك الدهليز الكريه الرائحة الشديد العتمة، ومن الزنزانة الضيقة سمعت أصوات، ثم وقع خطوات أقدام عارية على الأرض، فصاح كبير السجانين وقد نفد صبره:

– هيا يا مسلوفا.. أسرعي.

وما هي إلا بضع دقائق حتى خرجت من الزنزانة امرأة شابة متوسطة القامة ترتدي ثوبًا أبيض تعلوه "مريلة" بيضاء، وفي قدميها جورب غليظ وحذاء ضخم.. وشعرها الأسود الأثيث الجعد يحيط به منديل كبير أحمر اللون. وأما وجهها فعليه تلك الصفرة الشاحبة التي ترى على وجوه من احتجزوا طويلا في مكان مغلق. أما الشيء الذي يسترعي الالتفات استرعاء شديدا، هو عيناها... فقد كانتا سوداوان لهما بريق أخاذ، وفيهما يقظة وحيوية، ثم برزت إلى الدهليز، وسارت وراء كبير السجانين بخطوات صغيرة متلاحقة، فهبطا السلم الحجري، ومرا بزنزانات الذكور، التي تطفح منها رائحة أنفذ وأنتن من تلك التي تخرج من زنزانات الإناث.

ودخل كبير السجانين و"مسلوفا" المكتب، حيث كان يقف جنديان شاكيي السلاح، فسلم أحدهما كاتب السجن ورقة وهو يشير إلى السجينة قائلًا:

– هذه هي المرأة..

تناول الجندي الورقة وطواها ووضعها في ثنية تخيط بأحد كميه، وهو يرشق زميله بغمزة من عينيه خبيثة مومئا إلى السجينة الشابة! ثم أحاط الجنديان بالمرأة ونزل ثلاثتهم من السلم المفضي إلى باب السجن الرئيسي، ففتحت فيه فرجة صغيرة دلفوا منها إلى تيار الحركة الدافق في الطريق العام.

وكان الحوذية والتجار الجائلون والطباخات والعمال والمستخدمون يقفون في طريقهم حين تمر بهم الثلة الثلاثية، ويرمقون مسلوفا بنظرة استطلاع فاحصة... يتفلسف بعضهم في تعليقه فيقول: "هذه هي نهاية الرذيلة وختامها المحتوم.. وقانا الله الفضيحة!"

وأما الفلاح الذي كان خارجا لساعته من مشرب الشاي، فإنه رسم علامة الصليب وتعوذ بالله من الشيطان ثم مد يده إلى المرأة السجينة بدرهم فتضرج وجه مسلوفا وأطرقت برأسها وهي تتمتم عبارات مبهمة.. فقد ثقلت عليها هذه النظرات التي رأتها تتركز فيها.

الفصل الثاني

قصة خاطئة

قصة "مسلوفا كاتيوشا" قصة ساذجة لكنها مؤثرة، فأمها فتاة فلاحة كانت تعمل حارسة في مزرعة للبهائم لدى عانسين عجوزين، أما أبوها فرجل من الغجر الرحل، اتصل بأمها خلال مروره بتلك المزرعة، ثم رحل وخلفها وراءه وفي أحشائها ثمرة ذلك الاتصال الحرام!

وعن لإحدى العانسين أن تكفل الوليدة الصغيرة، فعنيت بعمادها وأمدت أمها بما تحتاج إليه من لبن ومال ورعاية، فعاشت الوليدة وترعرعت حتى إذا أتمت ثلاثة أعوام مرضت أمها ثم توفاها الله فتولت العانسان أمر الطفلة، ولم تبخلا عليها بعطف وحنان، فكانت لهما في شيخوختهما الموحشة نورا وأنسا وبهجة.

وكانت صغراهما تدعى "صوفيا ايفانوفنا" أما شقيقتها الكبرى فكانت تدعى "ماريا ايفانوفنا"وهي ذات مظهر صارم، على عكس صوفيا التي كانت غاية في الوداعة وطيبة القلب، ولهذا عنيت بأمر تربية "مسلوفا" فهي التي تلبسها ثيابها وتطعمها وتعلمها القراءة والكتابة، مضمرة في نفسها أن تعدها لتكون مربية أو معلمة، في حين كانت شقيقتها تقدر في نفسها أن تغدو "مسلوفا" عاملة أو وصيفة لدى أسرة ذات مكانة، ولهذا كانت تشتد عليها أحيانًا كثيرة، وقد تضربها إذا كانت منحرفة المزاج ضائقة الصدر! وكذلك شبت "مسلوفا" بين هذين العاملين المتباينين، وكانت تنادى باسم من

أسماء التدليل هو "كاتيوشا" وتشرف على تدبير المنزل، وتقدم الطعام على المائدة، وتقوم بغسل الثياب وحياكتها، وفي بعض الأحيان تقربها الشقيقتان لتقرأ لهما في ساعات السأم أو ساعات الفراغ.

ولما بلغت الثامنة عشرة، جاء إلى البيت ابن أخ للشقيقتين، وهو شاب ثري يحمل لقب الإمارة، وما زال في مرحلة التعليم فأخذت كاتيوشا بمظهره وافتتنت به افتتانا شديدا، بيد أنها قاومت ذلك الحب الطارئ مقاومة صادقة، وبعد عامين آخرين عاد الأمير الشاب إلى بيت عمتيه ليودعهما قبل أن يرحل إلى جبهة القتال، وفي هذه المرة لم يفته أن يلمح حسن الفتاة وأن يغويها، ثم تركها ذات صباح مسافرا إلى فرقته بعد أن دس في يدها ورقة نقد من ذات المائة روبل!

وبعد خمسة أشهر، أدركت كاتيوشا أن في أحشائها جنينًا، وأصبحت ولا هم لها سوى أن تستر عارها الذي ينتظرها، فأهملت ما تقوم عليه من عمل، ولوحظ عليها ذلك، ووصل بها الأمر إلى الانتقاص من قدر الشقيقتين العانسين، واجترأت على أن تقول لهما ذات يوم:

– إذا لم تكونا راضيتين عني فأخليا سبيلي!

ثم رحلت عن القصر بعد ذلك، وعملت وصيفة في منزل أحد الرجال، غير أنها لم تستطع أن تظل في خدمته أكثر من ثلاثة أشهر، لأنه كان برغم بلوغه الستين لا يكف عن مغازلتها، فلما اشتد إلحاحه عليها ذات ليلة لم تطق صبرًا على ذلك، وأخذت تسبه سبًا مهينًا، ثم دفعته بيدها بكل قوتها فسقط على الأرض، وكان هذا آخر عهدها بمنزله!

ولم تكن هناك أية جدوى من البحث عن عمل جديد وهي في عشية المخاض، فأقامت عند امرأة مولدة مترملة، حتى تمت الولادة خفية. وكان من حسن حظها أن الطفل لم يعش أكثر من بضعة أيام، على أنها كانت في أشد الحاجة إلى عمل ترتزق منه، وقد وجدت ذلك العمل عند رجل متزوج يدير إحدى المزارع ولكنه جعل يلاحقها برغباته الآثمة ولا يترك لأعصابها المكدودة وقتا للراحة. ثم عرضت له بعد أيام فرصة مواتية فبلغ غايته منها، وعلمت زوجته بالأمر، فلم يهدأ لها بال حتى ضبطتهما ذات يوم، وفقدت كاتيوشا عملها مرة أخرى.

وعادت إلى البحث عن عمل عاجل تعيش منه، فالتحقت بخدمة سيدة تعيش مع ولديها، فلم يمض على التحاقها بهذا العمل أسبوع واحد حتى ساءت حال أكبر الولدين، وهو فتى يافع لم يكن شاربه قد نبت بعد، فأهمل دروسه، فتبادر إلى ذهن أمه أن الخادمة الشابة المليحة هي التي تستثير غريزة ولدها الساذج وتشجعه على المضي في مغازلتها فطردتها.

وفي هذه المرة لم يكن أمر الحصول على عمل جديد سهلًا ميسرًا، فمضى عليها وقت من دون أن توفق إلى عمل، إلى أن لقيت في بعض مكاتب التخديم سيدة مسنة تغطي يديها وذراعيها مجموعة ضخمة من الخواتم والأساور. وما علمت هذه السيدة بالمأزق الذي يكتنف كاتيوشا حتى أعطتها عنوانها وطلبت إليها أن توافيها فبادرت إلى إجابة هذه الدعوة، وهناك تلقتها السيدة العجوز بالترحيب والبشاشة وقدمت إليها شيئًا من الحلوى والنبيذ الحلو، ثم أرسلت خادمتها برسالة.

فلما كان المساء دهشت كاتيوشا دهشة غير يسيرة إذ رأت رجلًا مديد القامة، طويل الشعر أبيضه له لحية أنيقة يدخل الدار فيجلس إلى جانبها؛ ويتفحصها بنظرة في غير مواربة تفحصا غير مألوف!

ولم تلبث ربة الدار أن دعت ضيفها إلى غرفة مجاورة لتحادثه على انفراد. وسمعت كاتيوشا ربة الدار تقول له:

– إنها ناضرة كالزهرة، فقد وصلت اليوم من الريف. وأنها لتحفة آثرتك بها!

ثم نادتها السيدة وقالت لها: "إن الزائر الكريم كاتب واسع الثراء، ولسوف يغدق عليك من كرمه العظيم إذا استطعت أن تمتعيه بما يروق له!".. وقد منحها الشيخ خمسة وعشرين روبلا، وتركها على موعد بالعودة إليها.

وسرعان ما تبددت الروبلات الخمسة والعشرون، فقد استغرقا شراء ثوب جديد وقبعة جديدة. وما انقضت بضعة أيام حتى أرسل الشيخ يدعوها إلى بيته، وهناك أعطاها خمسة وعشرين روبلا أخرى، ثم اقترح عليها أن يستأجر لها مسكنًا مستقلًا فقبلت. وأقامت بالحجرة المفروشة التي استأجرها لها، بيد أنها لم تلبث أن أغرمت برجل كثير الضجة والمرح يسكن في الدار التي بها حجرتها، فصارحت الشيخ بالأمر وانتقلت إلى مسكن آخر!

وكان صاحبها الجديد قد بذل لها الوعد بعد الوعد بأن يتزوجها، ولكنها استيقظت ذات صباح فإذا به قد شد الرحال بغير إنذار، ولم يترك أثرًا يدل على مستقره الجديد!

وكانت ترجو أن تظل في مسكنها المستقل، ولكن مندوبا من إدارة البوليس أبلغها أنها لا يمكن أن تعيش وحدها على هذا النحو، إلا إذا حصلت على ترخيص يكفل خضوعها للإشراف الطبي خضوعا منتظما بحسب اللوائح والقوانين!

وبعد أيام مضنية، التقت بامرأة تحترف تقديم الفتيات لبيوت اللهو والترفيه، فأقنعتها هذه المرأة بالالتحاق بخير هذه الدور في المدينة، بعد أن بينت لها جميع المزايا التي تتوافر في هذه الحرفة. وكانت المسكينة بين أمرين كلاهما مر: فإما أن تختار مذلة الخدمة في البيوت مع التعرض لسطوة أسيادها وعدوانهم. وإما أن تختار ذلك العمل الذي تأمن فيه شظف العيش والتعرض للخطر، لأنه عمل يعترف به القانون.

وكان أن آثرت العمل السافر السهل الأخير!

وفي هذه الليلة عينها قادتها المرأة إلى بيت الترفيه المشهور باسم بيت "كيتايف" ومن هذا اليوم بدأت حياة الخادمة السابقة صفحة جديدة، تشبه في جملتها وتفصيلها حياة آلاف غيرها من النساء يحميهن القانون وترعاهن الحكومة، ولكنها حياة يغلب أن تنتهي بأمراض كثيرة وبشيخوخة مبكرة ومنية قبل الأوان.

وما تلك الحياة؟

نوم إلى الضحى، وقد يصل إلى الظهيرة، فيه ثقل ووخامة، بعد صخب الليلة السابقة وهرجها ومرجها، حتى إذا انقضت ساعة طويلة في التثاؤب والتمطي، وتجرع أكواب من المنعشات للإفاقة من سكر الأمس، ثم تجرع فناجين من القهوة وعصير الليمون، يبدأ الشجار مع الزميلات لسبب أو لغير

سبب سوى انحراف المزاج بعد ذلك النوم الوخيم. ثم يأتي دور الحمام المعطر وتصفيف الشعر والمناقشة في شئون العمل مع مديرة البيت، ثم الاستعداد الطويل للعمل نفسه بالجلسات الطويلة أمام المرايا للتزين والتبرج وتزجيج الحواجب. وبعد هذا تبدأ جماعات الرواد في الوفود إلى الدار، بين دقات الموسيقى الراقصة. ويبدأ الشرب والأكل واللهو والقصف مرة أخرى، كالليلة التي مضت وكالليلة التي سبقتها!

وماذا عسى أن يكون أولئك الرواد؟

إنهم صنوف من الناس، يغدون صفوفا بعد صفوف، بين يافع غر خجول لا يدري ما يصنع وما يقول، وشيخ فان إلا من الصبوة يصطنعها أو الفتوة يدعيها، وبين أرمل فيه فضلة من قوة، أو زوج لم تستطع زوجه أن تنسيه طعم اللذة الحرام، وعليل أنهكه الفسوق، أو صحيح مزهو بعافيته، وبين مهذب رقيق أو سوقي صفيق، وشارب لا يكاد يفيق وصاخب لا يكف عن الضجة والصياح من العشية إلى الصباح!

حتى إذا أقبل الغد، كان نوره مؤذنا بانطلاق النساء المسكينات من هذا الجو الخانق، يلذن بالمخادع ويغمضن العيون ليستودعن الكرى عناء حياتهن التي تقوم على سهر الليل ونوم النهار!

فإذا بلغ الأسبوع أجله حلت زيارة الطبيب، يقصدنه في دار المحافظة. وفي تلك الدار يلقين الموظف والأطباء، فمنهم الرقيق الوديع والفظ الغليظ القلب، ومنهم الساخر الذي تجرد من الحياء وانتهزها فرصة لينفس عن مكنون نفسه. ولكن لابد من هذه المحنة في سبيل الحصول على شهادة تبيح لهن مزاولة المهنة أسبوعا آخر!

وعلى هذا النحو تمضي حياتهن اليائسة، لا تتغير في صيف أو شتاء، ولا تتبدل في عطلة أو عيد، وإلى هذه الحياة انتهت كاتيوشا ولبثت فيها سبعة أعوام، تنقلت فيها من بيت إلى بيت، وقضت في المستشفى بضعة أشهر، حتى إذا بلغت السادسة والعشرين من عمرها وقع لها الحادث الذي سيقت على أثره إلى السجن، ومن جرائه تقف اليوم بساحة القضاء.

الفصل الثالث

في المحكمة

في الوقت الذي وصلت فيه "ماسلوفا" إلى دار المحكمة في حراسة جنديين مسلحين، كان الأمير ديمتري ايفانوفتش نكليودوف، وهو الرجل الذي أغواها وأفسد حياتها، يتقلب متكاسلا في فراشه الناعم الوثير، فلما غادر فراشه أخيرا، فانتعل خفيه، وألقى على كاهله رداء فضفاضا، ثم دلف إلى حجرة الزينة، حتى إذا التفت إلى خطاباته ليفضها، دخلت عليه امرأة عجوز ترتدي ثياب الحداد هي "اجربينا نتروفنا" وصيفة والدته المتوفاة ومدبرة منزله بعد ذلك، وكانت قد نشأت في هذا المنزل منذ نعومة أظفارها، وعرفت ديمتري منذ طفولته الأولى.

وقالت العجوز للأمير: "عم صباحا يا ديمتري ايفانوفتش".

فقال لها: "عمى صباحا يا اجربينا بتروفنا.. ما وراءك؟"

فناولته خطابا مغلقا أنيقا تفوح منه رائحة عطر، وقالت له: "هذا الخطاب جاءت به وصيفة منذ كثير من ساعة. وما زالت في انتظار الرد".

وفض الأمير الخطاب المعطر الأنيق وقرأ فيه:

"لقد أخذت على عاتقي أن أذكرك أمرًا لعلك نسيته، وهو أنك اليوم مطالب بأن تقوم بعملك عضوا في هيئة المحلفين في المحكمة. وعلى هذا

لن يتسنى لك الحضور معنا كما وعدت أمس. وقد تذكرت عملك في المحكمة بعد أن افترقنا مباشرة.. الأميرة ميسي كورتشاجوين".

وعلى الوجه الآخر من الورقة قرأ ما يلي:

"والدتي تؤكد أن طعامك سينتظرك حتى المساء، فتعال متى فرغت من عملك في المحكمة، في أي ساعة كان ذلك".

وشعر بشيء من الضيق ينتابه.. إن هذه الرسالة ليست إلا حلقة من سلسلة طويلة من أحابيل دأبت الأميرة الشابة كورتشاجوين على نصبها له منذ شهرين لحمله على الزواج، ولعل أهم هذه الأسباب أنه كان غارقا حتى أذنيه في مغامراته الغرامية، وقد نسي أمر مغامرته السابقة مع ماسلوفا كاتيوشا لكنه شغل بمغامرة أخرى مع عشيقة متزوجة أوقعته في حبائلها، ولم تدع له سبيلا إلى قطيعتها. وهي زوجة ماريشال من النبلاء، لها خبرة بطرق استهواء الرجال. وهكذا كانت الأغلال التي تقيده بها تشتد يوما بعد يوم، حتى بات يشعر كأنه مطالب أدبيا بالإبقاء على صلته بها، فليس له إلى قطع تلك الصلة من سبيل! ولمحت عينه في هذه اللحظة خطابا على المائدة، عليه خاتم مكتب الماريشال الإداري، فصعد الدم إلى رأسه، فقد تذكر تلك اللحظات الأليمة التي قضاها في خيانة هذا الرجل.. وتذكر على الخصوص يوما خيل إليه فيه أن الزوج قد علم بكل شيء، فبات يتوقع دعوة منه إلى المبارزة، وعول على أن يطلق رصاص مسدسه في الهواء، لأنه خجل أن يقتل رجلا يدافع عن شرفه.. وتذكر أيضا يوما بلغ فيه جنون صاحبته به حدا لا يطاق، حتى لقد همت بأن تلقي بنفسها في النهر، وراح هو يبحث عنها في كل مكان كالمجنون!

ولكن هذا الهوى العنيف الجامح ثقل على أعصابه، فلم يستطع كبح نفسه عن الكتابة إليها منذ أسبوع، معترفا لها بخطئه إذ تورط معها في علاقة آثمة، وأبدى استعداده لكل تضحية ممكنة في سبيل التكفير عن هذا الخطأ، ولكنه مع هذا نصح لها مخلصا بأن تقدم على قطع ما بينهما من علاقة. وبقي ينتظر ردها بصبر نافد، وفي لهفة صادقة. لكن هذا الرد لم يصل! وكان بين بريده خطاب من وكيل دائرته يلح عليه في الحضور لترتيب الأمور في الضياع الواسعة التي ورثها عن أمه، وقد سره هذا الخطاب وساءه في آن واحد.. سره لأنه ذكره أنه يملك ضياعا مترامية الأطراف كثيرة الغلة. وساءه لأنه كان فيما سلف من دهره من المعجبين بآراء هربرت سبنسر الاجتماعية إلى حد التعصب، تلك الآراء التي تحرم على الأفراد الملكية الزراعية، بل إن تعصبه لهذه الآراء في صدر شبابه تعدى تدبيج الرسائل في تحبيذها والدعوة لها إلى التنازل عن ميراثه عن أبيه للفلاحين الذين يزرعون تلك الأرض! ولكن الأمر الآن مختلف عن ذلك اختلافا كبيرا، فميراثه من أمه ضخم طائل يبلغ أضعاف ميراثه من أبيه قبل عشر سنين، فهو الآن بين أمرين: إما أن ينزل عن هذه الثروة الطائلة، وإما أن ينزل عن تلك المبادئ، ولم يكن هذا الاختيار سهلا، فقد تقلب الشاب في النعمة والترف بفضل ثروة أمه أثناء حياتها، فلم يكلفه التنازل عن ميراثه الضئيل من أبيه شيئًا من الحرمان أو الشظف. أما اليوم، فالتنازل عن ميراث أمه معناه الحرمان من هذا النعيم الذي ألف التقلب فيه!

يضاف إلى هذا أن قوة حماسته لمبادئه القديمة كانت قد ضعفت بذهاب فورة الشباب فأضحى أقل ميلا إلى التعلق بأن يبهر الناس بطرافة أساليبه وصرامة نزاهته وزهده.

وكان قد فرغ من شرب قهوته، ودق الجرس، وأمر الخادم بإحضار عربة من عربات الأجرة، وأن يبلغ الوصيفة التي حملت الرسالة أنه سيحاول جهده أن يتوجه لزيارة الأميرة متى فرغ من عمله في المحكمة، ثم استقل العربة إلى دار المحكمة، ورأسه كخلية النحل لكثرة ما يتردد فيها من الأسئلة المحيرة التي تشغل وجدانه ولاسيما فيما يختص بمسألة زواجه بالأميرة كورتشاجوين!. ومضى يحدث نفسه بأن هذا الزواج له مزايا كثيرة، ليست أقلها شأنها راحة البال والهدوء والاستقرار.. ثم مزية إنجاب الأطفال، تلك المزية الكبرى التي تربطه بالمجتمع.. ولكن هذه المزايا كلها يقابلها أنه يكره الزواج من حيث المبدأ، ويراه قيدا للحرية!

ولما وصلت العربة إلى المحكمة، قال لنفسه في تبرم:

– لندع هذا الآن، فلدينا متسع من الوقت للتفكير في الزواج ومزاياه، ومساوئه.. أما الآن فينبغي أن نفرغ أولا للقيام بواجبنا القضائي بما تمليه الذمة والشرف!

**

وفي أروقة المحكمة وأبهائها كانت الحركة دائبة لا تفتر، والضجة صاخبة لا تخفت، فهؤلاء حجاب، وهؤلاء جند وحراس.. وهناك غيرهم سكرتيرون وكتاب ومحامون وقضاة، وكل من هؤلاء مسرع في خطوه ويدق الأرض بحذائه دقا.. أما المتقاضون فكانوا أقل جلبة وحركة، وأكثر تواضعا، فهم يلوذون بالجدران، ويتسللون في صمت ووجل، أو يجلسون على الأرائك الخشنة مطرقين!

ومر الأمير الشاب بهذا كله، حتى بلغ حجرة المحلفين فألقى باسمه إلى الحاجب ودخل، فوجد في الحجرة حوالي عشرة رجال اختلفت هيئاتهم. ولكنهم متفقون فيما ارتسم على وجوههم من جد صارم شأن من يهمون بأمر خطير من أمور الجماعة، وكان الرضا يبدو على أكثرهم، وإن لم يستطع بعضهم أن يكتم ضيقه بهذا التكليف الذي انتزعه من أعماله الخاصة لأداء هذه السخرة الثقيلة، وتهافتوا جميعًا على التعرف إلى الأمير ديمتري نكليودوف، تهافتهم على نيل شرف عظيم. وتقبل هو هذه المجاملة وكأنه يراها حقا من حقوقه، على أنه لو سئل بم استحق أن يعلو فوق سواد الناس لما استطاع جوابا، لأنه يدين بمبادئ المساواة والحرية!

والواقع أنه كان على يقين من أن هؤلاء الزملاء لم يلقوه بهذه التحيات والمجاملات لأنه يحسن الفرنسية والانجليزية والألمانية، أو لأن زيه يحمل طابع أشهر التجار والصناع؟.. وأنه ليعلم أن هذا لا يهم الناس... ولكنه مع ذلك يسلم بامتيازه، ويمتعض إذا لم يكن محورا للالتفات والتكريم. ومع أنه وصل إلى المحكمة متأخرا، لم يسعه إلا أن ينتظر فترة غير قصيرة قبل أن تفتتح الجلسة، وذلك لأن عضوا من أعضاء "الدائرة" كان كثير التدلل دائم التأخر عن المواعيد، ودخل حاجب المحكمة إلى قاعة المحلفين، بعنقه المديد، ومنظاره المثبت بأرنبة أنفه، فألقى على المحلفين نظرة سريعة ثم قال:

– هل جميع السادة المحلفين موجودون؟

فأجابه واحد منهم، وهو تاجر بدين:

– أظن هذا!

فغمغم قائلا: "سنرى!"، ثم أخرج من جيبه قائمة جعل يتلو منها الأسماء ويتحقق من وجود صاحب كل اسم، حتى أتم القائمة، وهو يوزع النظرات على كل محلف بحسب مكانته الاجتماعية.. ثم قال للجميع وهو يشير إلى باب قاعة المداولة:

– والآن أيها السادة تفضلوا بالدخول.

***

وكانت هذه القاعة فسيحة، في نهايتها منبر واسع يرتقى إليه بدرجات ثلاث، تعلوه مائدة عليها بساط أخضر، وثلاثة مقاعد من البلوط لها ظهور عالية، ووراءها على الحائط صورة بالحجم الطبيعي وبألوان صارخة، تمثل القيصر بملابسه العسكرية، متقلدا وشاحه الأكبر، ويده على مقبض سيفه، وفي زاوية من الحجرة صورة للمسيح ومذبح صغير على مقربة منه مكتب النائب القيصري، وعلى يمين المنبر صفان من الكراسي معدان لجلوس المحلفين.. وعن يساره قفص الاتهام ومكتب سكرتير الجلسة. وفي المقاعد الأمامية من القاعة نفر من عامة الناس، بين ذكور وإناث، جاءوا لشهود الجلسة في رهبة وخشوع.

وأقبل الحاجب في خطى مهيبة، فصاح في الناس بصوت عميق، كأنما يريد به أن يدخل الهول في روعهم: "محكمة"، فنهض الجميع وقوفًا..

وظهر القضاة الثلاثة: يتقدمهم الرئيس، وهو رجل طويل قوي البنية، وخط الشيب عارضيه، له في عالم اللهو والقصف باع طويل، ثم عضو اليمين، وهو رجل بخيل ظاهر الصرامة. ثم عضو اليسار، وهو رجل تطل الطيبة من عينيه، وله لحية طويلة.

وجلس القضاة الثلاثة، يحفهم وقار الصدارة في الجلسة، وارتفاع المكان فوق المنبر المثلث الدرجات، والكسوة المذهبة الحواشي. ويبدو أنهم شعروا بما يلقونه في النفوس من رهبة، فقد أطرقوا برؤوسهم وغضوا من أبصارهم فيما يشبه التواضع!

وكان على المائدة المكسوة بالبساط الأخضر آنية من الزجاج ومحبرة وأقلام وأوراق مختلفة الأحجام. وأقبل ممثل الاتهام في أثر القضاة وأسرع إلى مكانه يحتله بجوار النافذة، وبعد أن قلب بضع أوراق استغرق في قراءة ملف معين، منتهزًا تلك الدقائق القليلة لإعداد مرافعة الاتهام، والحق أن هذا النائب كان شابا طموحا جعل نصب عينيه أن يشق طريقه في مناصب القضاء بسرعة، وهو لهذا يجتهد كل الاجتهاد أن يجد في كل شيء ذريعة للإدانة. وقضية اليوم بالذات تثقل عليه لأنه لم يتوفر على دراستها، لانشغاله في الليلة الماضية بقضاء السهرة مع بعض الإخوان، فهو لهذا لا يجد بدا من الاكتفاء بأن يلقي نظرة عجلى على موضوع القضية.

أما رئيس الجلسة فنظر في بعض الأوراق ثم سأل الكاتب سؤالًا أو سؤالين، ثم أصدر أمره بإدخال المتهمين، ففتح في الحال باب خاص دخلوا منه إلى قفص الاتهام مباشرة يحرسهم جنديان قد أشهرا سيفيهما!

وكان أول المتهمين رجلا أحمر الشعر على وجهه آثار الجدري، تتلوه امرأتان. ورشق الرجل القضاة والحاضرين بنظرة سريعة ثم جلس على طرف المقعد الطويل وهو يتمتم كلاما لم يتبينه أحد، كانت وجنتاه تهتزان من أثره. وجلست إلى جواره امرأة شابة حمراء العينين ليست لها رموش وليس لها حاجبان، يبدو عليها الهدوء التام.. أما المرأة الأخرى فكانت صاحبتنا "كاتيوشا ماسلوفا". فما دخلت حتى تركزت عليها أنظار جميع الرجال،

يتأملون وجهها المليح وعينيها السوداوين اللامعتين.. وبدأت الإجراءات المألوفة في أول كل جلسة من مناداة الأسماء والتثبت من شخصيات المحلفين، ثم طلب الرئيس من الكاهن أن يقوم بتحليف المحلفين اليمين القانونية.

وكان هذا الكاهن شيخًا قصير القامة مصفر الوجه، فوق صدره صليب كبير من الذهب، وعليه طيلسان مزركش. فما دعاه الرئيس إلى تحليف اليمين حتى مثل أمام المذبح الصغير المقام تحت صورة المسيح، فنهض المحلفون واقفين، ثم أخذوا يصعدون إلى المنصة، بينما الكاهن يسوي بيده شعره المشعث، ثم توجه إليهم بالخطاب قائلًا:

– ارفعوا اليد اليمنى هكذا، ورددوا ورائي.. "أتعهد وأقسم بالله العظيم على الإنجيل المقدس والصليب الطاهر أن أنظر في جميع ما يتعلق.. لا تخفض يديك!"

وكانت هذه العبارة الأخيرة موجهة إلى شاب بين المحلفين هبط بيده شيئًا يسيرا عن الوضع المطلوب.. أما بقية المحلفين وفيهم ضابط عظيم متقاعد وتجار وبعض الأعيان فقد احتفظوا بالسمت المطلوب، فلما انتهى القسم دعا الرئيس المحلفين إلى اختيار رئيس لهم، فسرعان ما اتفقوا على اختيار رجل من بينهم عليه سيما الوجاهة، ثم وجه رئيس الدائرة إليهم كلمة في واجبات المحلفين وحقوقهم. والتفت بعد ذلك إلى المتهمين قائلًا: "سيمون كارتنكين. قف ما اسمك؟"

فوقف الرجل وقال: "اسمي سيمون بيتروف كارتنكين".

ثم تتابعت الأسئلة التقليدية، وأجاب عنها المتهم بأن مهنته الفلاحة، وعمره أربعة وثلاثون عاما، وديانته المسيحية الارثوذكسية، وليس متزوجا،

ويعمل خادما في فندق موريتانيا، وليس له سوابق قط، وقد أعلن بصحيفة الاتهام!

فأمره الرئيس بالجلوس، ثم نادى: ايفيمياترانوفنا بوتشكوفا، وألقى عليها الأسئلة السابقة في تواتر آلي، وكانت هذه المتهمة فلاحة، في الثالثة والأربعين من عمرها تعمل خادمة في فندق موريتانيا، ولم تقدم للمحاكمة من قبل.

ولما جاء دور المتهمة الأخرى لم تظل عينا الرئيس مثبتتين في الأوراق بل التفت إليها وجعل يلقي عليها الأسئلة بلهجة ظاهرة العذوبة. وكان نيكليودوف قد ثبت منظاره فوق أنفه فما وقع نظره عليها حتى عرفها على الفور ولاسيما بعد أن سمعها تذكر أن اسمها فيما مضى كان كاتيوشا!

أجل.. عرف نيكليودوف تلك الفتاة التي ربتها عمتاه والتي أغراها ذات مساء ثم تركها لقدرها المقدور في خسة وجبن، عرفها مع أن نضرتها كادت أن تذهب وحل محلها الشحوب والهزال، فجعل يقول لنفسه في دهشة واضطراب:

– ترى ما حدث لها حتى انتهى بها المطاف إلى قفص الاتهام في محكمة الجنايات؟

وفي هذه اللحظة كان رئيس الجلسة يسألها:

– هل لك عمل؟

فسكتت ولم تجب، فألح عليها الرئيس فقالت على استحياء:

– كنت في بيت من بيوت الترفيه!

فسألها: "هل حوكمت قبل الآن؟".

فقالت: "كلا..!" ثم كان استجوابها قد انتهى، وبدأ نداء الشهود، ثم تليت صحيفة الاتهام، وكان فيها ما يلي:

"في السابع عشر من يناير أبلغ مدير فندق مورنتانيا الجهات المختصة أن التاجر ثبراينت سملكوف قد توفي عنده فجأة. وبفحص مخلفات القتيل تبين فقد ما كان معه من نقود وخاتم ماسي، ورجح أن المجني عليه قتل مسموما ثم سرق، وقد أدى التحقيق إلى النتائج الآتية:

"أولًا- كان التاجر المذكور يحمل ثلاثة آلاف وثمانمائة روبل سحبها ليلة مصرعه من المصرف. ولم يعثر في جيبه وحقائبه إلا على ٣١ روبلا.

"ثانيًا- أمضى القتيل يومه الأخير والليلة التالية في صحبة الفتاة ماسلوفا التي توجهت إلى حجرته مرتين.

"ثالثًا- باعت الفتاة المذكورة لمديرة البيت الذي تعمل فيه خاتما ماسيا كان يخص القتيل.

"رابعًا- أن الخادم ايفينيا بتشكوفا أودعت في المصرف غداة مصرع التاجر ألفا وثمانمائة روبل باسمها.

"خامسًا- شهدت ماسلوفا بأن الخادم سيمون كارتنكين أعطاها مسحوقًا لتضعه في نبيذ القتيل واعترفت بأنها فعلت ذلك، كما اعترفت بأن القتيل طلب إليها أثناء وجوده معها في بيت الترفيه الذي تعمل فيه أن تتوجه إلى فندق موريتانيا لتحضر له نقودا من غرفته. فلما فتحت حقيبته بالمفتاح الذي أعطاها إياه أخذت منها أربعين روبلا بحسب طلبه، وأنكرت أنها أخذت لنفسها شيئا، واستشهدت على ذلك بسيمون وايفيميا اللذين كانا حاضرين.

"أما فيما يتعلق بالسم فقررت أنها حين زارته في غرفته للمرة الثالثة أعطته نبيذا مخلوطا بمسحوق قدمه لها سيمون باعتباره مخدرا بسيطا يجعله يستغرق في النوم ويكف عن مضايقتها.

"وأما الخاتم فقررت أن القتيل أعطاها إياه ترضية لها لأنه أقدم على ضربها فغضبت وهمت بتركه.

"وقد قررت ايفيميا أنها لا تدري شيئًا عن المال المسروق وأنها لم تدخل حجرة القتيل، وإنما دخلتها مسلوفا وحدها فهي المسئولة دون غيرها عن كل شيء. ولما ووجهت ايفيميا بالمال الذي أودعته باسمها في اليوم التالي وهو ١٨٠٠ روبل ادعت أنها ادخرته في ثمانية عشر عاما بالاشتراك مع سيمون الذي تزمع الزواج منه.

"ولما سئل سيمون اعترف أول الأمر باقتسام المال مع المرأتين، كما اعترف بتقديمه المسحوق لماسلوفا كي تخدر به القتيل ولكنه نكص بعد ذلك وأنكر كل ما تقدم، وقرر أن المال المودع باسم ايفيميا هو مجموع ما ادخره معها من الهبات التي كان يجود بها عليهما نزلاء الفندق الأسخياء.

"وأثبت فحص جثة القتيل أن وفاته كانت بالسم..كما اتضح للنيابة أن القتيل كان يكثر من التردد على بيوت الترفيه، وأنه اتصل على الخصوص بالمتهمة مسلوفا وكان شديد الميل إليها، وكان معها في اليوم المذكور في بيت الترفيه وأعطاها مفتاح حقيبته في الفندق لتحضر له منها أربعين روبلا بعد أن أنفق ما كان يحمله في المجون والشراب الذي قدمه لجميع فتيات البيت. وهناك في الفندق استولت مع شريكيها على جميع أموال التاجر. ولكيلا يفتضح الأمر قرروا اجتذاب التاجر إلى الفندق ثم القضاء عليه بالسم الذي قدمه سيمون لماسلوفا. وبذلك يكون المتهمون الثلاثة قد وقعوا تحت طائلة

القانون معترفين بسرقة ٢,٥٠٠ روبل وقتل التاجر سملكوف لإخفاء آثار هذه السرقة، الأمر الذي تنطبق عليه المادة ١,٤٥٥ من قانون العقوبات".

وانتهت تلاوة صحيفة الدعوى، فتنفس من في القاعة الصعداء، لأن المحاكمة الحقيقية توشك أن تبدأ، ولسوف تتضح الحقيقة بعد قليل. فقد كان الاستطلاع هو الشعور السائد بين الحاضرين فيما عدا الأمير نكليودوف، فإنه كان في الواقع فزعا مروعا لهذا الذي سمعه في صحيفة الدعوى من إقدام الفتاة التي عرفها منذ عشر سنين ساذجة طاهرة الذيل على القتل والسرقة! ومال رئيس الجلسة على عضوي اليمين واليسار فتهامسوا لحظة، ثم نادى سيمون وقال له:

– أنت متهم بأنك في ١٧ يناير ارتكبت بالاشتراك مع ايفيميا بتشكوفا وماسلوفا جريمة سرقة أموال التاجر سملكوف، وتقديم الزرنيخ لماسلوفا كي تمزجه بشراب التاجر الأمر الذي أفضى إلى موته. فهل تعترف بهذا الجرم؟

– كلا!. لا أستطيع أن أقر لأنني...

– ايفيميا بتشكوفا. هل تقرين بارتكابك جريمة السرقة بالاشتراك مع سيمون وماسلوفا؟

– كلا.. إن ماسلوفا وحدها هي المسئولة لأنها دون غيرها هي التي دخلت الحجرة.

– ماسلوفا.. هل تقرين بجريمتي السرقة وقتل التاجر سملكوف بالسم؟

– إني بريئة..لقد أعلنت هذا من قبل وها أنذا أكرر الآن أنني لم آخذ شيئًا على الإطلاق من مال سملكوف. أما خاتمه فقد أعطانيه بنفسه!

– والمسحوق السام.. ألا تعترفين بمزجه بشراب القتيل وتقديمه إليه؟

– أعترف. ولكن قيل لي أنه مسحوق منوم يتيح لي الخلاص من مضايقات التاجر الثمل. فلم يكن قصدي إيذاءه وأقسم على هذا أمام الله!

– إذن أنت تنكرين السرقة فيما يختص بالنقود وبالخاتم ولكنك تعترفين بمزج المسحوق بشراب سملكوف؟

– أجل أعترف بهذا، ولكنني كنت أعتقد كما قلت لكم أنه مسحوق لا ضرر منه وإنما هو منوم بسيط!

– هذا حسن. والآن قصي علينا ما حدث.

واضطجع الرئيس في كرسيه الكبير ثم استطرد بلطف:

– أصدقينا واعلمي أن الصدق سيجعلك تتمتعين بعطف المحكمة وتستفيدين من الظروف المخففة.

– حينما وصلت إلى الفندق أدخلوني حجرته، وكان ثملًا..

– وبعد؟

– بقيت معه بعض الوقت ثم عدت إلى البيت.

وفي هذه اللحظة وقف ممثل الاتهام وأبدى رغبته في إلقاء سؤال على المتهمة هو: "هل كانت المتهمة على صلة قبل الجريمة بالخادم سيمون؟ وما حقيقة هذه الصلة؟". فأجابت عنه بقولها:

– كنت أعرف طبعا. فقد كان يحضرني للزبائن، ولكن الأمر بيننا لم يزد على ذلك مطلقا.

– ولكني أحب أن أعرف لماذا كان سيمون يدعو المتهمة بالذات ويقدمها للزبائن.

– لا أعلم!

وحينئذ قال الرئيس: "استمري. ماذا حدث بعد ذلك؟"

فقالت: "عدت إلى البيت وسلمت إلى المديرة النقود التي أعطانيها التاجر، ثم أويت إلى فراشي. وما كدت أغمض عيني حتى أيقظتني الخادم وهي تصيح بي: (قومي فإن صاحبك التاجر قد جاء) ولم تكن بي رغبة في النهوض لولا إلحاح المديرة، فنزلت فإذا هو ينفق بسخاء في تقديم المشروبات لجميع فتيات الدار حتى فرغت نقوده، فأوفدني إلى الفندق لأحضر أربعين روبلا من حجرته، فذهبت إلى هناك وفعلت ما أمرني به، ولكني لم أشأ أن أدخل حجرته وحدي فدعوت سيمون وايفيميا للدخول معي ليكونا شاهدين على سلامة تصرفي".

وهنا صاح ممثل الاتهام:

– هل لاحظت المتهمة وجود أوراق مالية أخرى وما عددها؟

– لا أعرف عددها، فقد رأيت مجموعة من الأوراق بينها أوراق من ذات المائة روبل.

– عظيم. هذا حسبي الآن.

– وحملت النقود إلى سملكوف ثم صعدت معه بعد ذلك إلى المخدع في فندقه بعد أن سدد الحساب في بيت الترفيه.

فسألها الرئيس: "كيف سقيته المسحوق؟".

– وضعته في كأسه ومزجته بشرابه.

– ولماذا أقدمت على ذلك؟

فتنهدت المتهمة وقالت: "لم يكن يريد أن يتركني، فخرجت إلى الممر وقلت لسيمون أنني متعبة جدا، فقال لي: (أنه يتعبنا نحن أيضا فلو سقيناه منوما لأراحنا وأراحك) فوافقت على هذا الاقتراح لأنني لم أشك في أن المسحوق الذي قدمه لي ليس سوى مخدر وقتي لا ضرر منه على الإطلاق،

وعلى هذا تناولت المسحوق من يد سيمون وعدت إلى الحجرة فإذا سملكوف يطلب إلي أن أقدم إليه كأسا من الكونياك. فأعطيته ظهري وهو راقد في الفراش وسكبت المسحوق في الكأس التي ملأتها بالكونياك وقدمتها له. فهل كنت أقدمها له حقا لو أنني كنت أعلم حقيقة ما فيها؟!"

– والخاتم؟ كيف صار إلى حوزتك؟

– لقد أهداني إياه.

– متى كان ذلك؟

– حينما عدت معه إلى الحجرة وضايقني هممت بالانصراف فضربني، ثم استرضاني بإهداء ذلك الخاتم إلي كي أبقى.

فنهض ممثل الاتهام مرة أخرى ليلقي سؤالًا آخر:

– ألا تذكر المتهمة أنها دخلت مكانا آخر في الفندق عدا حجرة القتيل؟

– دخلت حجرة أخرى بعد انصرافي من حجرة التاجر، وهي حجرة خالية!

– ولماذا؟

– لكي أرتدي ثيابي وأنتظر حضور عربة تقلني إلى البيت.

– وهل كان سيمون معك في هذه الحجرة؟

– أجل.

– ولماذا؟

– كان قد بقى مقدار من الكونياك فشربناه معا!

– شربتما الكونياك معا؟. عظيم!. وفيم كان الحديث على الشراب؟

فتضرج وجه ماسلوفا بحمرة شديدة وقالت:

– لم نتحدث في شيء! لقد قلت لكم كل شيء. ولم يعد لدي ما أقوله، فافعلوا بي ما شئتم، فلست مذنبة، وهذا كل شيء!

وساد القاعة صمت تام، ثم تهامس القضاة الثلاثة، وأعلن الرئيس بعد ذلك رفع الجلسة للاستراحة عشر دقائق. ثم نهض القضاة خفافا، ونهض المحلفون كذلك فتفرقوا ليريحوا أنفسهم قليلا، وهم يشعرون بأن القسط الأوفى من مهمتهم قد انتهى!

أما الأمير نكليودوف فخلا إلى نفسه في حجرة المداولة، حيث انتبذ مكانا إلى جوار النافذة، وأطلق لخواطره العنان.

الفصل الرابع

سياحة بين الذكريات

هذه إذن كاتيوشا.. لقد رأى الأمير نكليودوف هذه الفتاة أول مرة وهو يتم عامه الثالث في الجامعة ويعد رسالته عن الملكية الزراعية، وكان في هذا الوقت قد استقر فترة من الزمن عند عمتيه لأنه ظن أن مقامه بالريف أوفى بالراحة والهدوء.

وكان نكليودوف في تلك السن التي تتكشف فيها للمراهق فتنة الحياة وبهاؤها فتمتلئ نفسه بالأوهام والأخيلة التي تجمع بين الغموض والسحر والإمتاع، وكان قد قرأ في الجامعة فلسفة سبنسر الاجتماعية وتأثر بنظريات هذا الفيلسوف في الملكية الزراعية، مع أنه هو نفسه من أبناء كبار الملاك الزراعيين. ولم يكن أبوه واسع الثراء، ولكن أمه كانت تمتلك ضياعا واسعة، على أن الشاب كان من الشبان الذين لا تبلغ التضحية عندهم غايتها المثلى من إرضاء الذات إلا إذا كانت تضحية جسيمة، ولهذا قرر ألا يستفيد من حق وراثة هذه الأرض الواسعة. فلما مات أبوه فرق ما ورثه عنه من الأرض بين الفلاحين الذين يزرعونها.

وكان هذا الموضوع هو النواة الرئيسية للرسالة التي يعدها، وقد سلخ الشهر الأول عند عمتيه غارقا في هذا العمل فلم يلق بالًا إلى وجود كاتيوشا، تلك الفتاة التي كانت وسطا بين الربيبة والخادم، والتي كان لعينيها بريق أخاذ.

وكان نكليودوف قد تربى تحت جناح والدته فبلغ التاسعة عشرة من عمره من دون أن يحس شيئًا مما يحسه الشبان من فورات المراهقة وما تثيره في النفس من رغبات جامحة، وصحيح أنه كان يحلم بالنساء ولكن نساء أحلامه كن يتمثلن له زوجات بريئات.. ثم حدث ذات يوم أن زارت عمتيه جارة صحبت معها أطفالها:.. فتاتين وغلاما، ورساما شابا كان يصطاف عند هذه الجارة، وبعد تناول الشاي بدأ الشبان يلعبون في الحديقة لعبة "الاستخفاء" وكانت كاتيوشا تشترك في اللعب، فلما جاء دور نكليودوف كانت قرعته أن يختبئ معها، وكان يلذ له من قبل أن يراها ولكن لم يخطر له أبدا أن يتجاوز هذا إلى مطارحتها شيئا من الغزل.

وانطلقت كاتيوشا ويدها تختلج في يد نكليودوف تعدو وراءه قدر ما تستطيع ليختبئا معا، وكان الرسام الشاب هو الذي يعدو خلفهما ليلحق بهما، فلم يجد نكليودوف بدا من الاعتصام مع كاتيوشا بستار من النبات على يسار الأرض المعشوشبة، ولكن وراء هذا الستار كانت توجد حفرة لم يكن يدري بوجودها فتردى فيها، ولكنه لم يلبث أن نهض ضاحكا فإذا الفتاة تتلقاه وتأخذ بيده ثم تسوي له بيدها الأخرى ما تشعث من شعره، فقال لها وهو يشد على يدها وعيناه في عينيها:

– لم أكن أعلم أن في هذا المكان حفرة.

فاقتربت منه حتى كاد وجهاهما يتلامسان، فشدد الضغط على يدها وألقى على ثغرها قبلة، فابتعدت في حركة سريعة وهي تصيح صيحة خافتة، وفي هذه اللحظة شعر نكليودوف وكاتيوشا بأن كلا منهما يجذبه نحو الآخر شعور من أقوى ما يكون، فما تدخل الفتاة حجرة نكليودوف أو يبدو له

مئزرها الأبيض مقبلا من بعيد حتى يشعر بهزة تستولي على جوارحه جميعا وبنشوة تطغى على وجدانه، فتشرق الأشياء من حوله ويشع منها بهاء لم يكن لها من قبل، كأنما وجود الفتاة قد أضفى عليها شعاعا من نور لطيف! وكانت كاتيوشا تشعر بمثل هذا الشعور، على أن ما بينهما لم يزد بعد ذلك على العبارات المألوفة والمسلك العادي. على أن نظرة الفتى إلى الأشياء ما لبثت أن تغيرت إلى حد كبير، وأصبح سواء عليه، فقد حمل البريد إليه بشرى أو نذيرا، وسواء سهل أم صعب عليه المضي في الدراسة.. فكل ذلك شيء لا قيمة له ولا يستأهل منه اهتماما أو عناية ما دامت كاتيوشا موجودة، وما دام لقاؤها ميسرا في كل حين.

ولم تكن فرص الاجتماع بينهما لتبيح لهما الخلوة، وإنما هي أحاديث حارة وعبارات خاطفة في الشرفة أو الفناء أو في الحجرة، على مسمع من الوصيفة العجوز "ماترونا بافلوفيا"، ولكن عيونهما كانت تقول دائمًا شيئًا يخالف ما ينطق به اللسان، وقد استمرت العلاقة بينهما على هذا النحو طيلة المدة التي قضاها نكليودوف عند عمتيه، ولم يغب عن نظر العمتين تلك المودة الطارئة بين ربيبتهما وابن أخيهما، ولكن العمتين كانتا مطمئنتين إلى أن نكليودوف إنما يحب كاتيوشا حبا بريئا ساذجا. وكان أشد ما تخشاه عمته الشاعرية "صوفيا ايفا نفنا" أن يحمله هذا الهوى البريء على التفكير في الزواج من كاتيوشا التي لا تضاهيه حسبا ونسبا وثروة، غير أن الأمير الشاب لم يجد ما يدفعه إلى سلوك هذا السبيل. وهكذا رحل دون أن يصارح الفتاة بحبه لها، فضلا عن معاهدتها على الزواج.

***

ومضت ثلاثة أعوام بعد رحيله انقطعت خلالها أخباره عن قصر عمته، حتى عاد إليه فجأة ليودعهما قبل رحيله إلى جبهة القتال للالتحاق بالفرقة التي عين ضابطا فيها.

وكانت هذه الأعوام الثالثة قد غيرته إلى حد كبير، فصار رجلا وسيما جريئا، ولم يعد ذلك المراهق الساذج الطاهر السريرة المستعد لكل تضحية في سبيل ما يعتقده ساميا جميلا.

لقد صار أنانيا لا هم له إلا التمتع بالملذات، وكان قبل ثلاثة أعوام يرى الدنيا لغزا يجتهد في حله وتفسيره، ويرى المرأة أعقد ما في هذا اللغز، تحيط بها هالة من الغموض والمثالية الرفيعة، فصار ينظر إلى المرأة – فيما عدا نساء أسرته– على أنها شيء واضح محدد خلق ليكون وسيلة إلى إمتاع الرجل.. وكان فيما مضى شابا زاهدا قانعا، لا حاجة به إلى مال كثير، فلم يكن ينفق ثلث ما تعطيه أمه من المال، وبلغ من أمره أن نزل للفلاحين عن ميراثه من أبيه.. أما الآن فإن إيراده الشهري الذي يبلغ ألفا وخمسمائة روبل لا يكاد يكفيه، وتغيره هذا كان نتيجة إيمانه بغيره بعد أن كان لا يؤمن إلا بنفسه، ولا يحتكم إلا إلى عقله ووجدانه، والحق أنه قاوم هذا التغير أول الأمر، ولكن المعركة كانت فوق طاقته، فلم يجد بدا من الاستسلام، وأخلد إلى حياته الجديدة غارقا في الترف والنعيم..

نعم، هكذا كان حين عاد إلى قصر عمتيه ولعله عاد إلى هناك وفي زاوية من نفسه شوق إلى كاتيوشا، ولعل هذه الزاوية كانت تحوي مع ذلك شيئا من سوء النية، ولكنه لم يصارح نفسه بهذا ولا ذاك، مكتفيا بأنه إذ يعود إلى القصر إنما يودع موضعا نعم فيه حينا من الدهر بالرعاية والحنان، واستقبلته

عمتاه بحفاوة بالغة زاد فيها طول غيبته عنهما، وأنه ذاهب الميدان بعد أيام! وما وقع نظره على كاتيوشا هذه المرة، حتى أحس أن عواطفه القديمة نحوها قد بعثت من مرقدها فجأة.. فلا زالت عيناها الواسعتان شديدتي اللمعان آسرتي الجمال. وهذا هو مئزرها الأبيض يثير في نفسه النشوة ويبعث في جسده ذلك الاضطراب اللذيذ.. ولا يزال جرس صوتها ووقع خطاها شيئا يطرب له ويترقبه في لهفة.. أما ابتسامتها المشرقة فقد جعلت قلبه يخفق خفقانا شديدا دله على أنه ما زال عاشقا لها، كما كان قبل تلك السنين الثلاث.

على أنه وقد تطور ذلك التطور الكبير، لم يصاحب شعوره الجديد نحو الفتاة ما صاحب شعوره الأول نحوها من براءة وتحفظ، بل أحس في قلبه عقارب رغبة جامحة في أن يمضي في التمتع بهذه الفتاة الحسناء إلى إلى أقصى الحدود، وظل يقاوم هذه الرغبة إلى أن حل عيد الفصح.. وكان كلما هم بالرحيل، أمسكه عن السفر جاذب غامض يقيده بالمكان الذي شعر فيه بالسعادة.

وأيقظه من نومه ذات صباح طرق خفيف على الباب، عرف فيه طريقة كاتيوشا حين تدق الباب، فقفز من فراشه على عجل، وهتف بها:

– أهذه أنت يا كاتيوشا ؟.. ادخلي

فأطلت الفتاة من فرجة الباب وقالت له:

– عمتاك في انتظارك على مائدة الغداء.

ونظرت إليه بوجه مشرق، فقال لها وهو يرجل شعره على عجل:

– سأذهب من فوري

ولكنها ظلت واقفة ترقبه لحظة، فألقى بالمشط من يده واندفع نحوها، بيد أنها تخلصت من ذراعيه بخفة فائقة وخرجت من الحجرة. فسخط على نفسه، وأسرع وراءها ليدركها، ولم يكن يدري ماذا يريد منها على التحقيق، ولكنه اندفع مع ذلك وراءها، حتى إذ دخلت حجرتها صاح بها:

– كاتيوشا.. تمهلي

فاستدارت إليه وقالت: "ماذا تريد مني؟"

فقال: "لا شيء! ولكن..." ثم طوق خصرها الناحل بذراعيه، فجعلت تدفعهما بيد مضطربة وهي تقول:

– هذا لا يليق.. أتركني يا ديمتري ايفانوفتش..

وتركها وهو يشعر بالخجل والضيق، وبالسخط على نفسه، على أنه سرعان ما أمسك بها مرة أخرى، ثم قبلها في عنقها.. فصاحت به مروعة:

– ما هذا الذي تفعل؟

ثم ولت هاربة، فمضى إلى قاعة المائدة حيث كانت عمتاه وبعض الضيوف، ولكنه لم يفقه شيئا من حديث المائدة، لأنه كان مشغول الخاطر بتلك القبلة الحلوة، ولم يجد لنفسه عن ذلك التفكير منصرفا، فلما دخلت كاتيوشا قاعة الطعام، حرص على ألا يرفع إليها بصره، ولكن كيانه كله كان يهتز بتأثير وجودها.

وما كان ينتهي من تناول الغداء حتى لاذ بحجرته، لأنه كان في حالة شديدة من الهياج العصبي، فجعل يتمشى في الغرفة فترة طويلة، مرهفا أذنيه لعله يسمع وقع خطوات كاتيوشا!

وفي أصيل ذلك اليوم، كان عليها أن تذهب إلى الحجرة المجاورة لحجرته، لكي تعدها لمبيت ضيف حل بالقصر.. فما إن سمع نكليودوف صوتها حتى تسلل مخافتا من وقع خطواته حتى دخل عليها وهو يحبس أنفاسه كأنه لص أو قاتل يهم بارتكاب جريمته.

ترى أين هذا المتسلل المتلصص من ذلك الفتى الفيلسوف الذي كان يقرأ لفلاسفة الاجتماع، ويتحدث عن الحق والجمال، وعن الخالق ومجالي رحمته؟

والتفتت كاتيوشا حينما أحست به خلفها، وابتسمت، ولكن ابتسامتها كانت تحمل شيئا من الخوف والإشفاق، فوقف في مكانه لحظة، ثم تقدم نحو الفتاة فضمها إليه، وأجلسها فوق الفراش وجلس إلى جوارها، فهتفت به خائفة:

– بالله عليك يا عزيزي ديمتري ايفانوفتش.. هلا تركتني، فإني أسمع خطوات الوصيفة ماتريونا بافلوفنا..

ثم انتزعت نفسها من بين ذراعيه فجأة، إذ شعرت باقتراب خطوات قادمة نحو الباب المغلق.. فهمس لها في أنفاس مبهورة:

– كاتيوشا... سأذهب إليك الليلة في حجرتك.. فهل ستكونين فيها وحدك؟

فقالت له: "كلا.. كلا.. حذار أن تأتي إلى حجرتي.. هذا لا يليق، ولا ينبغي. أتسمعني؟!".

ولكن كيانها كله كان يقول وهو يختلج بالرغبة المكبوتة شيئا غير ما تقوله شفتاها، وفي هذه اللحظة دخلت الوصيفة ماتريونا بافلوفنا عليهما الحجرة، فخرج منها دون أن ينبس ببنت شفة.. ومن عجب أنه لم يشعر بأدنى خجل، برغم ما تيقنه من ارتياب الوصيفة العجوز في أمره!

ولازمه طول الأمسية شعور بالقلق والضيق، فهو تارة يدخل على عمتيه حجرتهما، وتارة أخرى يغادرهما إلى الشرفة أو إلى حجرته الخاصة... وليس في رأسه إلا أمر واحد هو: كيف السبيل إلى كاتيوشا في غفلة من الوصيفة العجوز؟

ومضى الهزيع الأول من الليل، وأوى الضيف إلى مضجعه، ومضت العمتان إلى فراشهما على إثر ذاك، وكان نكليودوف يعلم أن ماتريونا تكون معهما في هذه الساعة، وأن كاتيوشا وحدها حتما.. فمضى إلى الفناء، واقترب من نافذة حجرتها. وكان قلبه يدق دقا عنيفا، حتى أنه كان يسمعه بوضوح وكانت أنفاسه قصيرة متلاحقة لاهثة..

وفي ضوء المصباح الخافت الذي يضيء حجرة كاتيوشا، بدت له الفتاة متكئة إلى نضد وقد أغمضت عينيها كأنها تحلم.. فوقف يتأملها هنيهة في نظرات والهة لم تخل من شفقة عليها، ولكن هذه الشفقة لم تستطع إخماد النار المستعرة في صدره هياما بها، واشتد شوقه إلى ضمها بين ذراعيه، فاقترب من النافذة في خفة ونقر زجاجها نقرات خافتة، ولكنها كانت كافية لتنبيه الفتاة، فانتفضت واقفة، واقتربت من النافذة وألصقت وجهها بزجاجها.

وكان يبدو عليها القلق والخوف، ولكنها لم تلبث أن تبينت شخصه فارتسمت على شفتيها ابتسامة تنم عن الغبطة والقلق.

ولما رأته يشير إليها أن تخرج للقائه في الفناء، أومأت برأسها رافضة، فاقترب بوجهه من النافذة، وهم بأن يصيح بها ملحا عليها في الخروج، لولا أنها التفتت في هذه اللحظة نحو الباب كان أحدا قد ناداها من جهته، فابتعد من النافذة قليلا، ثم عاد بعد قليل فوجد الفتاة قد عادت إلى جلستها الأولى وظهرها إلى النافذة، فدق الزجاج بأصبعه مرة أخرى، وفي هذه المرة لم تحاول أن تتبين الطارق على النافذة، بل خرجت فورا من الحجرة، ثم سمعها تغلق الباب في حذر، فوثب ليلقاها في البهو الخارجي، وهناك احتواها بين ذراعيه في عنف دون أن ينبس بكلمة، فاستسلمت لعناقه، وألصقت رأسها بصدره، وفيما هو يغمرها بقبلاته فتح فجأة باب حجرة الوصيفة العجوزة وصاحت في صوت غاضب:

– كاتيوشا. كاتيوشا!

فانتزعت الفتاة نفسها من بين ذراعيه، وعادت إلى حجرتها فأغلقتها على نفسها بالمزلاج، وساد الصمت المكان.. وعاد نكليودوف إلى حجرته، ولكنه لم يلبث بها إلا لحظات، خرج بعدها إلى الممر، فتسلل على أطراف أصابع قدميه، إلى باب مخدع كاتيوشا. وكان على يقين من أنها لم تنم بعد، وما كاد ينطق باسمها همسا حتى قفزت من مكانها إلى الباب وهتفت به من ورائه هامسة:

– ما هذه المظاهرة بالله عليك؟ لعمري أنك لا تراجع نفسك ولا تتعقل فيما تقدم عليه. فعمتاك حريتان أن تسمعا هذه الضجة التي تحدثها بخطوك ونداءاتك..

وكان صوتها خافتا مختلجا، في حين كان جسمها ينتفض، ولم يخف على نكليودوف دلالة لهجتها فقال لها في إصرار وحدة:

– افتحي لي الباب دقيقة واحدة.. دقيقة واحدة فقط.. أتوسل إليك!

وسكتت لحظة، ثم سمع حركة يدها وهي تتحسس موضع المزلاج من الباب، ثم فتح الباب، ودخل نكليودوف الحجرة فرفع الفتاة بين ذراعيه، وكانت في غلالة رقيقة تكشف عن نحرها وذراعيها، ثم احتضنها في عنف بالغ، فهتفت به في رعب مكتوم:

– ما هذا؟ ماذا تفعل؟!

ولكنه لم يكن ليسمع هذا الذي تهمس له به في وجل ورعب، فقد كان الدم يغلي في رأسه، فحملها إلى مخدعه الخاص حملا... وكانت الفتاة المسكينة تصيح به في همس جازع:

– هذا لا ينبغي.. هذا لا يجوز.. دعني.. أطلقني!

ولكنها كانت في الوقت نفسه تلتصق به وتتعلق بعنقه!

وحينما غادرت مخدع الفتى متخاذلة الأعضاء، واجفة القلب، وخلا إلى نفسه، شرع يفكر فيما ارتكب، من أمر، وحدث نفسه قائلًا:

– ما هذا الذي أتيت؟.. أهو سعادة عظمى أم شر مستطير؟ أهو لذة كبرى أم هو إثم كبير؟ ولكن واها وبعدا لهذا الاهتمام، فمن في الناس كافة لم يفعل ما فعلت، ويفعله كل يوم لو استطاع؟ ثم استسلم لسلطان الكرى!

فلما كان اليوم التالي، وقد هدأت ثائرة حواسه المهتاجة، شعر بأن رحيله عن قريب وإن حرمه من ورود هذا المنهل الذي ذاق من حلو جناه حتى انتشى، إلا أنه سيتيح له قطع هذه العلاقة التي يكتنف دوامها الكثير من الصعاب والعقابيل ثم عن له أن من الواجب اللازم عليه أن يمنح الفتاة شيئًا من المال.. لا لأنها في حاجة إليه، بل لأنه هكذا جرت عادة الناس في مثل هذه الأحوال، وفي يوم سفره، بحث عن كاتيوشا، حتى إذ رأته تضرج وجهها شيئا ما وهمت بأن تتحاشاه، ولكنه استبقاها قائلا لها:

– أردت أن أودعك

ودس في يدها ظرفا فيه ورقة نقد قيمتها مائة روبل وهو يستطرد:

–.. هذه لك...

فاكتأبت نظرتها التي عهدها مشرقة، وهزت رأسها ودفعت يده بيدها، فدس لها المظروف في صدرها وهو يلح عليها قائلا: "بل خذيها".

ثم استولى عليه ندم شديد، فأسرع يلوذ بحجرته... وجعل يتمشى فيها برهة طويلة، وهو يحاور نفسه محاورة شاقة:

– ماذا يصنع؟ أليس هذا هو ما جرى عليه الناس؟ أليس هذا ما فعله صديقه "شنبوك" مع مربية أغواها؟ وخاله جريشا، ألم يفعل مثل هذا أيضًا؟

وأبوه نفسه ألم يفعل ذلك مع فلاحة أولدها ولدا اسمه "نيتنكا" لا يزال على قيد الحياة إلى الآن؟

وانتهى من هذه المقدمات الكثيرة، إلى أن هذا العمل طبيعي لا شذوذ فيه ما دام الناس جميعا يشاركون فيه، ولكنه كان يعلم في أعماق سريرته علم اليقين أنه قد أثم إثما كبيرا، وأنه قارف ما قارف في جبن وخساسة، وأنه لا سبيل له بعد الآن إلى اعتبار نفسه إنسانا راقيا ذا قلب وضمير... بيد أنه لا بد له مع ذلك أن يحتفظ بقناع كاذب من الطهارة والاستقامة والنبل ثم فعل الزمن فعله، فعفت الأسفار ومشاغل المجتمع ومهام الحياة على أثار هذا الحادث، حتى نسيه تماما أو كاد.

***

ولكن ها هو ذا الماضي يبعث حيا فجأة ذات صباح، على نحو غريب غير منتظر، فهو جالس بين المحلفين الذين يزنون العدل للناس بالقسط، وهي جالسة في قفص الاتهام بجريمة قتل للسرقة، وأوجس في نفسه وهو جالس يستعيد الماضي في قاعة المداولات، أن تكون الفتاة قد عرفته، وأن ينبش محاميها الماضي فيشهر به أمام الملأ.

الفصل الخامس
العقوبة

ساءت حالة نكليودوف النفسية حين أعلن الحاجب استئناف الجلسة، وعاد المحلفون إلى أماكنهم في قاعة المحكمة، فدخل خائفا متهيبا، كأنه أحد المتهمين وليس من هيئة القضاء، وأخذ مكانه بين المحلفين، محاولا أن يصطنع الهدوء، ولكنه بدا مضطربا كل الاضطراب، ثم أعيد المتهمون إلى قفصهم، وبدأ سماع شهود النفي والإثبات وفي مقدمتهم السيدة "كيتايف" صاحبة بيت الترفيه والقصف الذي كانت كاتيوشا ماسلوفا تعمل فيه فقالت:

– إن سيمون خادم الفندق جاء يطلب إحدى الفتيات العاملات عندي ليقدمها لتاجر ثري من سيبيريا، فذهبت ماسلوفا معه ثم عادت بعد ساعة ومعها ذلك التاجر الغني، ومن أنه كان بادي السكر، استأنف الشراب وطلب تقديم الطعام لكل فتيات البيت، ولما فرغ ما كان يحمله من مال أرسل المتهمة إلى الفندق لتحضر له بعض المال من حجرته.

وهنا سألها المحامي الذي ندبته المحكمة للدفاع عن كاتيوشا..

– ما رأيك الشخصي في المتهمة؟

فقالت: "هي فتاة متعلمة ممتازة ربيت في بيت عريق له مكانته، وإذا كان يحدث منها أحيانا أن تفرط في الشراب، فإن هذا لم يكن يجعلها تنسى

نفسها وتتجاوز حدود اللياقة في سلوكها أو تعبيرها، فهي فتاة رضية الخلق طيبة القلب حقا.

فرمقت كاتيوشا رئيستها بنظرة شكر وامتنان، ثم حانت منها التفاتة إلى جهة المحلفين، وركزت نظراتها على الأمير نكليودوف فازداد قلقه واضطرابه، وتوجس خيفة من نظرات العينين السوداوين اللتين ذكرتاه بتلك الليلة التي اقترف فيها جنايته عليها، وحدث نفسه بأنها لابد قد عرفته، وأطرق كالطفل الصغير حين يستشعر الخوف، ولكن الواقع أن كاتيوشا لم تميزه من بقية المحلفين، وما لبثت قليلا حتى عادت إلى التحديق في رئيس الجلسة، فتنفس نكليودوف الصعداء وقال: "لكم أتمنى أن تنتهي هذه القضية فأخلص من هذا العناء"

كان إحساسه أشبه بإحساس الصائد حين يهم بأن يجهز على طائر جريح يتخبط بين يديه لكي يضع حدا لآلامه، ولهذا تمنى أن تنتهي هذه المحاكمة ولو كان في ذلك القضاء على كاتيوشا حتى يضع حدا لآلامها التي تطيل أمدها إجراءات العدالة وسماع الشهود ومناقشتهم، على أن القدر أبى إلا أن تطول هذه الإجراءات إلى أقصى حد، فبعد أن انتهى استجواب الشهود وتلى تقرير الخبير، وبعد أسئلة لا طائل تحتها من القضاة أعضاء المحكمة ومن هيئتي الاتهام والدفاع، اقترح الرئيس على المحلفين أن يفحصوا أدوات الجريمة بأنفسهم، وكانت هذه الأدوات محفوظة في أحراز. وفيما كان المحلفون يهمون بفحصها وقف ممثل النيابة فجأة وقال: "أرى من الضروري قبل هذا الفحص أن يتلى تقرير الطبيب الشرعي عن جثة المجني عليه".

فاضطر الرئيس إلى إجابة هذا الطلب، ووقف الكاتب يتلو ذلك التقرير بصوت رتيب يبعث على السأم. فلما فرغ من تلاوته قال رئيس المحكمة:

– في استطاعة حضرات المحلفين أن يفحصوا الآن أدوات الجريمة.

وقام رئيس المحلفين وبعض المحامين فاقتربوا واحدا بعد واحد من المائدة التي فوقها الأحراز ليفحصوها. فلما انتهى الفحص أعلن الرئيس انتهاء التحقيق القضائي، ثم دعا ممثل النيابة إلى الكلام. وكان هذا رجلا مغرورا بمنصبه شديد الجهل والغفلة والحمق، فراح كعادته يتشدق بالنظرات الاجتماعية السطحية قائلا:

– أمامكم يا حضرات المحلفين جريمة تتمثل فيها خصائص الجيل وآفاته، وإمارات الانحلال والتعفن التي باتت تهدد كيان المجتمع في هذا الزمان!

وأفاض في مرافعته على هذا النسق، حريصا على ألا يتوقف بين العبارات، حتى يبدو بمظهر الخطيب المصقع الذي يتدفق الكلام من فمه تدفقا.. كما حرص على ترصيع مرافعته بحكم وأمثال ونظريات اجتماعية مما شاع في الزمن الأخير وأصبح الناس يرونه نهاية الحكمة والنفاذ في لباب الفلسفة الاجتماعية، فهذه آراء منقولة عن لمبروزو، وأخرى في الإجرام الفطري عن ثارو، وثالثة في التطور وتنازع البقاء والإيحاء والمغناطيسية، ولم ينس حتى شاركو الطبيب العصبي العالمي. فأخذ يستشهد بأقواله العلمية الحديثة وهو يشرح ويحلل نفسية القتيل سملكوف، فصوره نموذجا للرجل القوي الطيب القلب المتطوع بالثقة في جميع الناس، مما جعله فريسة لقوم لا خلاق لهم أساءوا استغلاله وانتهوا بأن أوردوه حتفه.

ثم انتقل وكيل النيابة إلى الحديث عن سيمون خادم الفندق فصوره شخصا من حثالة الناس ونفايتهم لا مبادئ له ولا تقوى، بل ورث عن أسلافه الأسافل ميله إلى الإجرام، فهو لذلك ضحية هذا الميراث الظالم الذي كتب عليه الانحلال الخلقي، ولا حيلة في صلاحه ومثله عشيقته ايفيميا. وخرج من ذلك إلى أن المسئولية الكاملة الحقيقية عن هذه الجريمة إنما تقع على كاتيوشا ماسلوفا. وأفاض في ذلك قائلا:

– إن هذه المتهمة لا عذر لها فيما اقترفت من وراثة أو تربية، فهي قد تعلمت القراءة والكتابة وربيت في بيئة فاضلة وبيت من البيوت المحافظة المشهود لها بالتصون. وحتى مديرة البيت الذي انحدرت إلى العمل فيه تشهد لها بحسن الخلق والتهذيب. ولكن مما يستوقف النظر حقا أن هذه المرأة لم تطق حياة الفضيلة والنعمة في بيت كافلتيها الفاضلتين، فهجرت ذلك كله لتتقلب بين أحضان الرجال سعيا وراء إرضاء شهوة جامحة لا تعرف حدا لجموحها وثورانها، ولم يكن هذا الإرواء المستمر للشهوة ممكنا إلا في بيت من بيوت اللهو والمجانة والترفيه، فاحترفت هذه الصناعة وتفوقت فيها على زميلاتها لاستعدادها الفطري للخلاعة وإرضاء الرجال مما جعل تأثيرها قويًا جدًا في نفس ذلك التاجر السيبيري العملاق، فاستولت على مشاعره وحواسه، وأولادها ثقته، فكان هذا سببا في ضياع ماله ثم في ضياع حياته دون أن تأخذها به أدنى شفقة!

ثم خاطب المحلفين قائلا: "إن هذا الطراز من المتهمين لا يستحق الرحمة، فضعوا نصب أعينكم أن الأمانة التي في أعناقكم لا يتعلق بها مصير هؤلاء المجرمين الثلاثة وكفى. بل يتعلق بها مصير المجتمع الروسي كله، فقولوا كلمتكم وأعلنوها على رؤوس الإشهاد قوية قاطعة مدوية، وادمغوا هذا

الانحلال الخلقي والاجتماعي الذي تعد هذه الجريمة عرضا من أعراضه. ولا تنسوا أن تشديد العقاب على هذه المتهمة فيه حماية للأبرياء والشرفاء، على ما يتهدد شباننا ورجالنا وأسرنا من البوار والدمار والانهيار!".

وما أتم وكيل النيابة هذه العبارة حتى ألقى بنفسه بين ذراعي مقعده الوثير مطمئنا إلى أنه أدى رسالته أحسن الأداء.

وكان لباب مرافعته كلها، إذا غضضنا النظر عن البيان البديع والزركشة البلاغية التي وشى بها خطبته الطويلة ينحصر في أن ماسلوفا قد أثرت تأثيرا مغناطيسيا إيحائيًا في التاجر السيبري الساذج إلى أن انقاد لها ووثق بها فعبثت بهذه الثقة، ولاسيما وقد رأت في حجرته تلك الأموال الطائلة من أوراق النقد حين ذهبت لتحضر له الأربعين روبلا، فسولت لها نفسها الأمارة بالسوء أن تستولي على هذا المال كله. ولكن سيمون وايفيميا باغتاها فاضطرت إلى مقاسمتهما ذلك المال اضطرارا، ثم خشيت من افتضاح أمرها فعملت على العودة مع التاجر إلى الفندق حيث تمكنت من القضاء عليه بالسم!

***

وبعد هذا السيل الجارف من الطنطنة البيانية نهض أحد المحامين، وكان يرتدي سترة رسمية، فأخذ يدافع عن الخادمين سيمون وايفيميا اللذين نقداه أجرا للدفاع عنهما قدره ثلاثمائة روبل، وجعل همه كله في تحميل كاتيوشا كل مسئولية وتبرئة وكيليه من مال التاجر ودمه، فالمال الذي وجد في حوزة وكيليه لا يعدو في زعمه أن يكون مجموع ما ادخراه خلال خدمتهما الطويلة بأمانة وهمة وإخلاص جعلت نزلاء الفندق يغدقون عليهما الهبات، ولم يكن كثيرا

عليهما أن يدخرا في اليوم خمسة روبلات. أما كاتيوشا التي استولت على مال التاجر، ولم يوجد في حوزتها منه شيء ما عدا الخاتم، فإن على الشرطة والمباحث الجنائية أن تحل هذا اللغز، وعلى كل حال فلا شك في براءة موكليه من سرقة ذلك المال.. أما جريمة قتل التاجر بالسم الذي دس له في كأس الشراب، فلا محل لمناقشة اتهام سيمون وايفيميا بذلك، لأن المقطوع به باعتراف ماسلوفا نفسها أنها هي التي دست السم للتاجر!

وأعقبه المحامي المنتدب بالمجان للدفاع عن كاتيوشا، فبدأ مرافعته بصوت منخفض يتسم بالوجل والخجل، فلم ينكر أن موكلته ألقت على نفسها جريمة السرقة ولكنه اجتهد في التدليل على أنه لم يكن في نيتها قتل التاجر سملكوف بالسم، وإنما أعطته مسحوقا كانت تحسبه لا ضرر فيه. ثم انتقل إلى تحليل نفسية ماسلوفا بادئا بسقوطها في مهاوي الرذيلة بعد تربية صالحة، ولكن معارفه السيكولوجية لم تكن من طبقة ممتازة. ولم ينجح في هذا التحليل الذي أراده، ثم أخذ يندد بالرجال الأنذال الذين يغررون بالفتيات بمعسول اللفظ وحلو الأماني حتى إذا قضوا منهن وطرا تركوهن لقسوة الحياة والناس عليهن، فلا تبقى أمامهن وسيلة للعيش الكريم ويتردين راغمات في مهاوي الرذيلة يتخذنها حرفة ومرتزقا.

وهنا تصدى له رئيس الجلسة قائلا في ضيق وتبرم وهو لا يخلو من حدة:

– التزم الموضوع، فإنك تتحدث خارج موضوع القضية المعروضة علينا الساعة.

فأسرع المحامي إلى إنهاء مرافعته، ثم سأل المتهمين هل لديهم بعد ذلك شيء يقولونه على سبيل الدفاع عن أنفسهم. فكررت ايفيميا بتشكوفا ما قالته من أنها لا تعرف شيئا وأنها لم تشترك في السرقة ولا في القتل، ثم كررت إلقاء الوزر كله على ماسلوفا.

أما سيمون فاكتفى بتكرار قوله: "اصنعوا بنا ما شئتم فنحن بريئان"

ولم تقل ماسلوفا شيئا على الإطلاق.. وحينما سألها الرئيس: هل لديها ما تضيفه إلى كلام محاميها دفاعا عن نفسها، رفعت رأسها ونظرت إليه بعينيها السوداوين وكأنها حيوان مغلوب على أمره، أطبقت عليه كلاب الصيد ثم انفجرت باكية دون أن تنبس بأية كلمة!

ولم يسع نكليودوف إلا أن يصعد زفرة عميقة، فقال له جاره الذي ينتمي إلى طبقة التجار: "ماذا بك؟.. كأني بك تهم أن تبكي!"

فلم يجب نكليودوف، وتشاغل بإصلاح وضع منظاره على عينيه وأنفه، ليخفي تجفيف الدموع، وكان الخوف من الفضيحة والعار قد استولى عليه، فماذا يكون موقفه لو علم الحاضرون حقيقة علاقته بالمتهمة، وكان هذا الخوف الشديد من الفضيحة قاضيا على صوت ضميره.

ثم عاد الرئيس فوجه كلامه إلى المحلفين منبها إياهم إلى خطر عملهم وعظم واجباتهم وسلطتهم فقال:

– لا تنسوا أنكم تمثلون هنا المجتمع وأن مداولاتكم ينبغي أن يحتفظ لها على الدوام بصفاتها السرية!

وكان الرئيس الهمام يتمتع بالإصغاء إلى نفسه وهو يتكلم فيعجب بوقع كلامه وجرسه. وكانت ماسلوفا تحدق فيه بنظرة ثابتة، كأنما تخشى أن يفوتها حرف من الملخص الذي أوجز به أطراف القضية للمحلفين، فانتهز نكليودوف هذه الفرصة ليتفحص الفتاة بنظراته وهو في مأمن من التقاء عينيه بعينيها، وعلى الرغم من زي السجن الذي كانت ترتديه، ومن قليل من الزيادة في قدها وحجم صدرها، وشحوب وجهها وذبول نضرته السابقة فقد تبين فيها على التحقيق جمال الفتاة التي كان يرمقها بوجد وهيام منذ بضعة أعوام..

وتجدد في نفسه العجب من ذلك الاتفاق الغريب الذي جعل هذه القضية من نصيب الدائرة التي يعمل فيها، كأنما كتب عليه أن ينقطع عن رؤية الفتاة عشر سنين كي يلقاها بعد ذلك فجأة في قفص الاتهام ويشترك في القضاء في أمرها..

ولكن هذه الخواطر لم تجنح به أبدا إلى أن يصغى أقل إصغاء إلى تأنيب الضمير والندم، بل كان مشغولا بتهدئة روعه والتسرية عن نفسه، محاولا الاقتناع بأن هذه المصادفة العارضة ستمضي دون أن تحدث في مجرى حياته أي أثر!.. وعلى هذا تجلد واصطنع الهدوء، وجاهد لصرف ذهنه عن وساوسه.

وانتهى الرئيس أخيرا من ملخصه، فهب المحلفون من أماكنهم ومضوا إلى قاعة المداولة وهم يهزون أذرعتهم متعجلين.. وما دخلوا قاعة المداولة حتى تخير كل منهم لنفسه مقعدا مريحا فاستقر فيه، ثم بدأت المناقشة فقال أحد المحلفين:

– يلوح لي أن هذه المتهمة ليست سوى ضحية بريئة، ولهذا يجب علينا أن نستعمل معها كل ما في استطاعتنا من الرأفة!

فبادر إلى تأييده محلفان آخران.. أحدهما التاجر الذي كان يجلس بجانب نكليودوف والآخر ضابط في الجيش. وقال محلف ثالث: "ليست هذه هي المسألة. وإنما المسألة هي: هل هذه المتهمة هي التي دبرت أمر الجريمة، أم دبرها الخادمان؟"

وحينئذ صاح رئيس المحلفين وهو يدق المائدة بقلم الرصاص:

– أيها السادة.. أرجو أن نجيب عن الأسئلة بالترتيب!

فسكت المحلفون، وبدأت مناقشة الأسئلة التي وضعتها المحكمة. فتلا رئيس المحلفين السؤال الأول وهو: "هل سيمون كارتنكين الفلاح البالغ من العمر ثلاثة وثلاثين سنة مذنب لأنه في ١٧ يناير مع سبق الإصرار والتعمد وبالاشتراك مع آخرين اقترف جريمة قتل التاجر سملكوف بوضع السم في شرابه بقصد سرقة ما في حوزته من أموال؟"

وأجاب المحلفون جميعا بالإيجاب ما عدا محلفا واحدا من المشتغلين بالمقاولات إذ خالفهم قائلا:

– إننا جميعا لسنا قديسين، فمن الخير أن نكون رحماء مترفقين!

ولم يفلح أحد في حمله على تغيير رأيه، ثم تلا الرئيس السؤال الثاني وهو خاص بايفيميا، فتشعبت المناقشة فيه تشعبا كبيرا، ثم أجمع المحلفون على أن هذه المتهمة ليست مذنبة لعدم كفاية الأدلة!

وأخيرا تلا الرئيس السؤال الخاص بماسلوفا، فحاول المحلف التاجر أن يبرر موقفها بإلقاء تبعة تدبير الجريمة وحبك خيوطها على ايفيميا، وكان كثيرون من المحلفين يرون رأيه، ولكن رئيسهم اجتهد في التدليل على أنه لا محل لاتهام ايفيميا بالسم، اكتفاء باشتراكها في السرقة، وبعد إلحاح من المحلف المقاول استقر الرأي على أنها يجب أن تتمتع بظروف التخفيف، وأصر الرئيس على اعتبار ماسلوفا مسئولة عن السرقة والسم معا. ولكن أكثر المحلفين ظلوا مترددين، ولاسيما نكليودوف لاقتناعه بأنها لا يمكن أن تكون كذلك. ولما رأى أن الرئيس ما زال مصرا على إدانتها أراد أن يدافع عنها مع المحلف التاجر، ثم تردد متوهما أن دفاعه عنها قد يكشف عن علاقته القديمة بها. واعتزم أخيرا أن يتكلم مهما تكن النتيجة، على أن زميله الأستاذ جويرا سينوفتش سبقه إلى الكلام فقال:

– اسمحوا لي بأن أبدي بعض الملاحظات على اتهام هذه المرأة بالسرقة.. إن مفتاح الحقيبة كان معها حقا، ولكن ألا يستطيع خدم الفندق أن يفتحوا حقيبته بمفتاح مصطنع؟.. ثم إنها لم تكن لها أية مصلحة في سرقة النقود، لأنها كانت تستطيع الحصول على المال من القتيل نفسه.. وأعتقد أن ذهابها إلى الفندق جعل الخادمين ينتهزان هذه الفرصة لارتكاب السرقة ثم كان من الطبيعي بعد ذلك أن يلقيا عليها الوزر كله لينجوا من القصاص.

وكان المحلف المذكور يتحدث في هدوء وثقة حتى مال أكثر المحلفين إلى اعتبار ماسلوفا بريئة من سرقة النقود والخاتم، ولما جاء دور مناقشة اشتراكها في القتل، تصدى التاجر المحلف للدفاع عنها مرة أخرى، مبينا أنها ما دامت لم تسرق فلا مبرر مطلقا على تسميم سملكوف. ولكن رئيس

المحلفين رأى أنه لا يمكن اعتبارها بريئة من هذه التهمة لأنها اعترفت بأنها وضعت بيدها المسحوق القاتل في كأس الكونياك التي قدمتها للمجني عليه.

فقال التاجر المحلف: "لكنها كانت تعتقد أن المسحوق ليس سوى مخدر منوم".

وهنا قال المحلف الضابط: "على كل حال لا شك في أنها لم تكن تجهل أن هذا المسحوق قد يقضي على حياته!"، ثم أخذ يروي للمحلفين أن زوجة شقيق زوجته كادت تموت يوما بتناول مسحوق مخدر لولا أن أسعفت بالعلاج في الحال.

ورأى رئيس المحلفين أن يحسم النقاش فقال:

– أيها السادة.. لقد أضعنا وقتا طويلا. والآن ها أنتم قد أجمعتم على إدانة المتهمة في جريمة دس السم للقتيل وإن لم تقصد السرقة.. أليس كذلك؟

فصاح التاجر المحلف: "بقي أن الظروف تجعل المتهمة مستحقة لتخفيف العقوبة".

فوافق الجميع على هذا الرأي ما عدا المقاول الذي أصر أنها غير مذنبة في الجريمتين. وكان الجميع قد نال منهم التعب الجوع، فاكتفوا بهذا القدر من المناقشة فكتبوا إجاباتهم لتقديمها للمحكمة دون أن يلاحظ حتى نكليودوف نفسه خلو هذه الإجابات من أن المتهمة لم تكن تقصد القتل، ثم عادوا جميعا إلى قاعة الجلسة واحدا بعد واحد، وقدم رئيسهم صحيفة الإجابات إلى رئيس الجلسة في شيء كثير من الزهو، فلما قرأها لم يستطع

أن يخفي دهشته الشديدة ثم مال على زميليه وتهامسوا طويلا في شأن ما تدل عليه إجابات المحلفين من أن ماسلوفا لم تسرق ولم تختلس ولكنها قتلت رجلا بغير هدف أو غاية مفهومة!

وقال الرئيس لعضوي المحكمة وهو في أشد حالات الاستياء:

– انظر إلى هذه الإجابات الحمقاء! إنها تعني وجوب الحكم على هذه المتهمة بالأشغال الشاقة، مع أنها غير مذنبة!

فقال عضو اليمين: "أواثق أنت بأنها غير مذنبة؟"

فقال: "نعم، ومن رأيي أن نطبق حكم المادة ٨١٧ التي تجعل من حق المحكمة أن تصحح قرار المحلفين إذا وجدت فيه ما يحتاج إلى التصحيح "

فقال عضو اليمين: "لقد عمت الشكوى أخيرًا ورددتها الصحف من ميل هيئات المحلفين إلى الرأفة بالمجرمين. فماذا تكون الحال لو أن المحكمة برأت المجرمين الذين يدينهم المحلفون؟. كلا!. ليس في وسعي أن أوافق على هذا الرأي يا حضرة الرئيس".

فتنفس رئيس المحكمة الصعداء وهو ينظر في ساعته ثم قال:

– ليتفضل حضرة رئيس المحلفين بقراءة القرار.

فوقف جميع المحلفين وتناول رئيسهم الورقة، وبعد أن سعل وتنحنح تلا الأسئلة والأجوبة، فاستولى الذهول على الحاضرين جميعا حتى وكيل النيابة والحاجب وكاتب الجلسة. ثم سأل رئيس المحكمة وكيل النيابة عن رأيه في العقوبة التي يجب تطبيقها، فانتفخت أوداج وكيل النيابة بهذا النصر الذي توهم أنه راجع إلى سحر بيانه وذلاقة لسانه فنهض وقال:

– أرى أن تطبق على سيمون كارتنكين المادة ١٤٥٢ والفقرة الرابعة من المادة ١٤٥٣. وأن تطبق على ايفيميا بوتشكوفا المادة ١٦٥٩، وعلى ماسلوفا المادة ١٤٥٤.

وهذه العقوبات هي أقسى ما يمكن توقيعه في هذه الأحوال.

***

ورفعت الجلسة للمداولة على إثر ذلك، وهنا مال أحد المحلفين على نكليودوف وقال له:

– لقد قضينا على تلك المسكينة ماسلوفا، لأننا نسينا أن نذكر في إجابتنا نفي قصدها القتل. وقد أنبأني كاتب الجلسة الآن بأن الحكم عليها لابد أن يكون بالأشغال الشاقة في سجون سيبيريا!

وقال رئيس المحلفين: "هذا صحيح، ولكني تلوت عليكم الإجابات فلم يعترض أحد!"

ونظر نكليودوف إلى المتهمين فوجد الخادمين جامدي الوجه، أما ماسلوفا فكانت تبتسم في هدوء!. وحدث نفسه قائلا:

– لو أنها برئت وأطلق سراحها لكانت مصدر قلق دائم لي، أما إرسالها إلى سيبيريا فسيوفر علي هذه المتاعب!

وعادت المحكمة إلى الانعقاد وصدر الحكم بحرمان سيمون وماسلوفا وإيفيميا من جميع الحقوق المدنية، مع الحكم على سيمون بالأشغال الشاقة ثماني سنوات وعلى ماسلوفا بالأشغال الشاقة أربع سنوات.. وعلى ايفيميا بالحبس البسيط ثلاث سنوات!

فتصلبت عضلات سيمون، واحتفظت ايفيميا بهدوئها، أما ماسلوفا فاستحال وجهها إلى لون القرمز وصاحت:

– إني بريئة.. نعم بريئة.. فلم أرد قتله ولا أنا فكرت فيه. وأقسم أنني لم أكذب بل قلت الحقيقة والحقيقة كلها..

ثم خرت على المقعد وأخذت في البكاء!

وحدث نكليودوف نفسه مرة أخرى قائلا:

– يجب ألا أترك هذا الظلم الفادح ينفذ!

ثم أسرع إلى مقابلة رئيس المحكمة فأدركه في الممر، وكان تأثره قد قضى على نوازع الأنانية التي كانت لديه، فقال للرئيس في لهفة:

– سيدي الرئيس هل تسمح لي بدقيقة فقد كنت محلفا؟

فوقف الرئيس وقال: "أية خدمة أستطيع أن أؤديها للأمير نكليودوف؟"

فقال له: "لقد حدث لبس في تأويل عقوبة ماسلوفا، فهذه المتهمة بريئة من القتل، ومع هذا حكم عليها بالأشغال الشاقة!"

فقال الرئيس: "لقد أصدرت المحكمة حكمها على أساس قرار المحلفين برغم أنه بدا لنا غير مستقيم".

– ولكن ألا يمكن تصحيحه؟

– طبعا يمكن استخراج مبرر للنقض.. إن المسألة شديدة الغرابة حقا، ولكننا معذورون لأن المحلفين لم يقرروا أنها لم تقصد القتل، فلم يعد هناك

سبيل إلى تبرئتها، وتعيين الحكم عليها بالأشغال الشاقة. ولكن أي محام حاذق في استطاعته أن يحصل على نقض لهذا الحكم.

وأسرع الرئيس بالانصراف متعللا بموعد سابق، بينما أسرع نكليودوف إلى حجرة المحامين للبحث عن محام مشهور يدعى "فنارين" وحدثه في الأمر، فأشار عليه المحامي برفع النقض أمام مجلس الشيوخ. ولما وكله في هذا أجابه قائلا:

– ليكن!. وسأطلب ملف القضية لدراسته، فتعال إلى مكتبي يوم الخميس القادم في العاشرة مساء لأعطيك رأيي الأخير..

وانصرف نكليودوف وهو يردد بينه وبين نفسه:

– بأي ضمير يدين بعض الناس بعضهم الآخر بغير الحق !

الفصل السادس

دموع الندم

تذكر نيكلودوف أنه مدعو إلى العشاء على مائدة آل كورتشاجوين، وكان الوقت لا يزال غير متأخر فأخذ طريقه إلى هناك، وكان العشاء قد بدأ حين دخل قاعة المائدة، فضايقه أن الحاضرين جميعا شغلوا باستقباله، وبدت له المصافحات الكثيرة ظاهرة السخف، بل بدا له جو البيت خانقا أبعد ما يكون عن الترفيه الذي كان ينشده، برغم الترف الباذخ الأنيق الذي يحيط بكل شيء فيه!

وعجب من شعوره في هذه المرة بالنفور من هذا البيت وما فيه من أشخاص وأشياء، حتى "ميسي" نفسها بدت له مزعجة ثقيلة على النفس وهي التي تنظر إليه في إعجاب كبير أساسه رغبتها القوية القديمة في اختياره زوجا لها، وتنصب له الشباك –عن غير وعي ظاهر منها – كي تصل إلى غايتها هذه. ولولا علاقته بالمارشالة لبادلها هذه الرغبة في الزواج.

وسألته حين جلس إلى جوارها:

– ماذا بك؟ إني لأراك متغيرا، وإني لأقرأ في وجهك أن شيئا وقع لك!

فتضرج وجه نيكلودوف وأجابها:

– هذا صحيح.. لقد وقع لي حقا شيء عجيب!

فقالت: "هل لي أن أعرفه؟"

فقال: "ليس في وسعي أن أبوح به الآن، لأنني لم أفرغ بعد للتفكير في كنهه ومبلغ أثره!"

واحمر وجهه من جديد..

فتجهم وجهها ولوت شفتيها مغضبة وقالت: "إذن.. أنت لا تريد أن تطلعني على هذا الذي وقع لك وأهمك؟!" ثم دفعت بيدها ظهر المقعد الآخر الذي كانت تتكئ عليه، فاشتد ارتباكه لكنه قال لها: "لست أستطيع ذلك فمعذرة!". ولم يزد على ذلك فقالت له:

– يلوح لي أن عملك في هيئة المحلفين لا يوافقك يا صاحبي؟

فقال: "هذا حق!.. ثم إني لست في مزاج جيد هذه الليلة ولهذا استأذن في الانصراف إذ لا يحسن أن أشرك الناس فيما أشعر به من ضيق!".

وتناول قبعته استعدادا للانصراف، فسألته ميسي: "ما سبب تعكير مزاجك؟"

فأجابها: "أرجو أن نؤجل الحديث في أمره الليلة".

فقالت: "لا تنس يا صاحبي أنك كنت تنادي دائما بأن على المرء أن يقول الحقيقة في كل وقت وفي كل حال، بل أنت لم تتحرج من مصارحة أناس كثيرين بحقائق على جانب كبير من الإيلام والمرارة. فماذا غيرك الليلة حتى جحدت مبدأك هذا؟"

فقال: "إن هذا الذي كان مني في الماضي ليس في الواقع سوى عبث أطفال لا يشعرون بالمسئولية. وكثيرا ما يصرح المرء بأشياء في ظروف خاصة، ثم إذا وجد الجد وواجه الواقع لم يسعه إلا أن يكتم أمثالها!"

فقالت له: "عبثا تحاول تحوير الحقيقة وقلب أوضاع الأمور، فدع عنك هذا وابق معي، ولتحاول نسيان تعكير مزاجك، ولهذا تراني دائما منطلقة الوجه مرحة. فتعال نطرد عنك الهم بنفضه عن سريرتك".

ولكن نكليودوف لم يستعجب لهذا الرجاء، بل اعتذر متعللا بأن هناك ما يحتم عليه العودة إلى داره فورا. فلما صافحها عند الانصراف، استبقت يده في يدها برهة أطول من المألوف وقالت له:

– تذكر أن ما يهمك يهم كل أصدقائك. فهل ستأتي غدا لزيارتي؟

فقال: "ما أظن أنني سأستطيع ذلك".. ثم غادر الدار وهو يشعر بخجل شديد، وأن حار في تعليله!

وقالت "ميسي" لنفسها بعد انصرافه وقد تجهم وجهها:

– ماذا جرى له؟ إن هذا ليحيرني، لعلها مسألة من مسائل الغرام؟! بل لعلني واهمة، فإن الأمر لو كان كذلك، وكان قلبه قد شغل بسواي بعد كل ما كان بيننا، لكان ذلك منه إثما كبيرا!

والواقع أن ميسي كانت تشعر بأن نكليودوف قد نبه في نفسها أملا براقا بأنه كان يعدها بالزواج منها، إن لم يكن باللفظ فبالنظرة الرقيقة الحالمة، والبسمة الرفافة الناعمة خلال الصمت البليغ الطافح بالمعاني والأماني، ولهذا تعودت أن تنظر إليه على أساس أنه لها وحدها، ولم تكن تطيق التفكير في أنها قد تفقده يوما، وحدث نكليودوف نفسه في الطريق إلى بيته قائلا: "ماذا أصابني؟.. ولماذا كل هذا التأثر الشديد بالمحادثة القصيرة التي جرت بيني وبين ميسي؟.

ليس هناك في الواقع شيء صريح بيني وبينها، ولم أرتبط نحوها بأي وعد، ولكن هذا لا ينفي أنه كانت بيننا أشياء يمكن تأويلها على أنها وعود وعهود.. بيد أني أشعر الآن شعورا واضحا قاطعا يملك على وجداني بأني لا أستطيع الزواج منها بأي حال"

***

وكان هذا الصالون هو المكان الذي ماتت فيه أمه منذ ثلاثة أشهر، وفيه مصباحان أحدهما يعكس ضوءه على صورة أبيه، والآخر يعكس ضوءه على صورة أمه. فوقف يتأمل هذه الصورة الأخيرة، وتذكر أمه وهي تلفظ آخر أنفاسها، وبدا له مسلكه حينئذ بعيدا عما ينبغي من البر. فزاد هذا في شعوره بالندم والخجل، ذلك الشعور الذي لازمه من بيت ميسي إلى بيته!

كان في الأيام الأخيرة لوالدته قد خامرته رغبة قوية في موتها. وقد زعم لنفسه حينذاك أنه إنما تمنى لها هذا إيثارا منه لخيرها، حتى تستريح من آلامها. ولكن هذا لم يكن منه إلا تمويها: فما أراد إلا أن يستريح هو من رؤية هذه الآلام الشديدة الواقع على الأعصاب!

وكانت صورتها المعلقة على الجدار بريشة رسام معروف، وهي تمثلها في ثوب من المخمل الأسود، عارية النحر. وكان ظاهرا في الصورة أن الرسام قد اجتهد في إبراز جمال الكتفين والصدر والعنق، فاشتد شعور نيكليودوف بالخزي والخجل وغض بصره حتى لا يرى أمه في هذه الصورة حسناء نصف عارية! وزاد هذا في وطأة ألمه إذ تمثلها منذ ثلاثة أشهر في هذا الصالون نفسه وقد غاض حسنها وجفت نضرتها وحوم حولها ملك الموت!

ومرة أخرى عاد ينظر إلى الصورة ويتأمل ذلك النحر العاري الذي تبدو أمه في ابتسامتها مزهوة به، فذكره ذلك النحر نحرا عاريا آخر يماثله، هو نحر "ميسي". وكانت هذه قد دعته ذات ليلة لكي يراها في ثوب جديد للرقص بدت فيه عارية الكتفين والصدر.. وشعر بشيء من التقزز حين تذكر كتفي الفتاة وذراعيها الرائعين، ثم انتقل به ذهنه من ميسي إلى والديها. فتمثل والدها الفظ الذي حفل ماضيه بالغلظة الحيوانية، وتمثل أمها ذات السمعة المخزية، وميلها إلى التماجن والتظرف، فزاد هذا أيضا في اشمئزازه، فأنشأ يقول لنفسه:

– يجب ألا أمضي في هذه الصلات الشائهة المقززة، ويجب أن أضع لها حدا في الحال، فلا يكون لي بعد اليوم شأن بأحد من آل كورتشاجوين، ولا بعشيقتي الماريشالة.. ولا بميراثي عن أمي! وحينئذ يتسنى لي أن أتنفس في حرية، فأفر بنفسي إلى روما، أو غيرها من بلدان الخارج متى انتهت مهمتي في هيئة المحلفين، وبعد أن اطمئن إلى قضية ماسلوفا. أجل، سأذهب إلى استانبول ثم إلى إيطاليا، وتمثلت له ماسلوفا بعينيها السوداوين الكبيرتين، ودموعها التي انهمرت حين سمعت الحكم عليها! وتقلصت أصابعه لشدة تأثيره فأخذ يذرع الحجرة طولا وعرضا. وطاب لمخيلته أن تبتعث كل دقيقة قضاها مع هذه الفتاة فكأنه يحياها من جديد. وطاب لها أيضا أن تقف به عند لقائه الأخير معها، وما كان منه من وحشية وفظاظة وغلظة حس، كأن شيطانا قد ركبه واستولى على زمامه، ثم ما كان بعد ذلك من شعوره بالندم والضيق!

وتذكر يوم التقى بها لأول مرة، فعاد إليه نفح من شذا نضرة شبابه وبراءته وحماسته لمبادئه، فزاده هذا ألما على ألم وسخطا على سخط. وبدا له الفرق بين حاضره وماضيه أكبر كثيرا من الفرق بين كايتوشا الحلوة النضرة الناعمة الخجول وبينها يوم رآها اليوم أمامه في قفص الاتهام!

لقد كان في ذلك الزمن الغابر إنسانا حرا شجاعا، تزخر نفسه بالآمال الكبار والمثل الرفيعة. أما الآن فأين هو من الحرية؟. أينما ينظر حوله فلا يرى سوى فخاخ تحيط به من كل جانب.. أن حياته كلها فراغ وتبطل وتفاهة، وقد أصبح مقيدا إلى هذه الحياة بأغلال البيئة، وبأغلال الكسل أيضا، فإنه لا يرى في نفسه ميلا إلى الخلاص من ذلك النمط التافه من الحياة!

وتذكر أيضا كيف كان يفخر فيما مضى باستقامته ويعتز بأنه يقول الحق ولا يكتمه مهما تكن الأحوال. أما اليوم فإنه يعيش في جو من الأكاذيب والأوهام والأضاليل التي تواضع الناس في مجتمعهم الفاسد المنحل على تسميتها حقائق، وهي من الحقيقة براء، بل هي منها على طرفي نقيض... وأنه – واآسفاه! – ليرى نفسه الآن وقد غرق فيها حتى أذنيه حتى لا يرى لنفسه سبيلا إلى الخروج منها، ثم كيف السبيل إلى قطع ما بينه وبين الماريشالة "ماريا فاسيليفتا"؟. وأني له أن ينظر بعد اليوم في عيني زوجها وأولادها فلا يركبه الخزي؟ وكيف يقطع ما بينه وبين "ميسي"؟ وكيف يوفق بين عدم تملك الأرض الذي يراه غير مشروع ولا جائز، وبين رغبته في الاحتفاظ بما ورث عن أمه حتى يتسنى له الاحتفاظ بمستوى حياته الراهن؟ وكيف له أن يمحو ما اقترفه في حق ماسلوفا وما أفسد من حياتها عشر سنين؟ مشكلات جسام بدت له مستعصية على الحل، ولكنه مع هذا لا يستطيع ترك الأمور في وضعها الراهن مهما يكن من أمر. فقال لنفسه:

– كلا! لست مستطيعا أن أترك امرأة أحببتها يوما، فأتخلى عنها في محنتها التي كنت سببها.. وليس كافيا على الإطلاق أن أوكل محاميا عنها وأدفع أجره. بل ليس كافيا أن أخرجها من ذلك الليمان الذي لم تستحقه بحال.. وكذلك لن تكون محاولة محو ذنبي القديم بتقديم المال لها إلا تكرارا لذلك الذنب!

وتمثلت له بشاعة فعله، حين لحق بالفتاة قبل أن يهجرها بعد أن عبث بعرضها، وكيف وضع في صدرها ظرفا فيه مائة روبل، ثمن حياة فسدت بعد هذا حتى انتهت إلى الليمان! وعاد يحدث نفسه قائلا:

– ما أخزى وما أقبح أن هذا لا يصدر إلا عن مجرم مطبوع على الخسة والقسوة! فهل أنا ذلك المجرم المطبوع؟!

وتردد لحظة، ثم كأنما عادت إليه عادة الصراحة القديمة، فأنشأ يخاطب نفسه في حرارة وحدة:

– أجل! إنك يا نكليودوف لوغد زنيم ومجرم مطبوع ما في ذلك شك! وهل يمكن تأويل علاقتك بماريا فاسيليفنا وزوجها إلا على هذا الوجه؟ وهل يمكن أن يأتي هذا الأمر ويقدم عليه بقلب مطمئن ونفس راضية إلا مجرم مطبوع على الإجرام ترتاح إليه نفسه. وكذلك استمراؤك التمتع بثروة تحتفظ بها بحجة أيلولتها إليك بالميراث عن أمك، مع إقرارك بعدم شرعيتها.. ثم ما قولك في حياة الفسق التي تحياها؟.. وهذا عدا مسلكك القديم الشائن مع كاتيوشا ماسلوفا.. أجل!. أنك لمجرم. وأنك لوغد! ولئن استطعت أن تخفي الحقيقة وتموه أمرك على من يحيطون بك إمعانا منك في البهتان، فليس في مقدورك أن تخفي الحقيقة على نفسك أيها المسكين!

وأدرك في تلك الساعة أن التقزز الذي شعر به منذ حين إزاء من يحيطون به ويتصل بهم، إنما مصدره في حقيقة الأمر تقززه من نفسه دون غيرها، ومن عجب أن هذا الاعتراف المؤلم بخسته ووضاعة نفسه قد بدا له لطيفا مسريا، ولم تكن هذه أول مرة يعالج فيها نكليودوف ما يسميه "امتحان السريرة" فإنه كثيرا ما شعر بأن نفسه ترزح تحت عبء من الأقذار تنوء به ولا تستطيع التغلب عليه، فيعكف على اطراح تلك الأقذار من نفسه بمواجهتها مواجهة صريحة!

وقد جرت عادته في أعقاب كل امتحان للسريرة من هذا القبيل على أن يرسم لنفسه خطة ومنهاجا للسلوك يلتزم بتطبيقه في حزم.. ولكن ظروف الحياة كانت تتآمر عليه في كل مرة فتحوله عن طريقه الجديد، وتتردى به إلى درك أسفل من الدرك الذي أراد أن ينتشل نفسه منه أول مرة! وكان أول هذه "الامتحانات" ما أخذ به نفسه عند أول مقام له بقصر عمتيه. وكان هذا الامتحان أقوى وأدق ما أقدم عليه من هذا القبيل، وكان الامتحان الثاني حين نشبت الحرب وانتظم في سلك الجندية، معتزما أن يهب أمته حياته.. ولكنه لم يلبث أن نسي أمر ذلك الامتحان الثاني بعد بضعة أيام من قيامه به، وكان ثالثها عشية قدم استقالته من الجيش ورحل إلى الخارج. ومنذ ذلك التاريخ لم يفكر في امتحان رابع لسريرته، ولكنه أيضا لم يبلغ في حياته من قبل إلى التردي في مثل الهوة التي هبط إليها في الزمن الأخير، ولم يحدث من قبل أن كانت الفرجة بهذا الاتساع بين حياته ومقتضيات ضميره. فلما امتحن نفسه هذه الليلة، هالته حالته واستولى عليه اليأس من صلاح أمر نفسه، وحدث نفسه قائلا:

– ويحي لقد حاولت مرارا قبل الآن أن أصلح ما فسد من شأني، ولكني لم أفلح قط. ففيم المحاولة الآن ولا طائل تحتها؟ ثم هل أنا الذي أعيش وحدي على هذا النحو المعوج؟ لقد فسد الناس، وهذا حال كافتهم.

ولكن ضميره استيقظ من سباته الطويل، فجعل يلح عليه حتى آلى على نفسه أن يمزق قناع الخديعة والوهم، مهما يكلفه ذلك من أمر!.. وهكذا حزم أمره وقال لنفسه:

– .. سأقول الحق كله ولا شيء غير الحق، وسيكون سلوكي كله على مقتضاه. سأقول الحق لميسي فأصارحها بأنني كنت وغدا حين جعلتها تعتقد أنني أضمر لها الحب وأعتزم الزواج منها!. وسأقول لماريا فاسيليفنا... ولكن ما جدوى هذا؟ ليس لدي ما أقوله لها. وإنما يجب أن أوجه القول لزوجها، فأصارحه بأنني نذل أقدم على خيانته مع امرأته!. وسأنزل عن ثروتي على الوجه الذي يقتضيه الحق ويحتمه. وأخيرا سأقول لكاتيوشا ماسلوفا: أنني مجرم أثيم ووغد زنيم!. نعم وسأعترف لها بذنبي وأعمل كل ما في وسعي للتخفيف عنها وإصلاح ما فسد وساء من حالها.. أجل! سأذهب للقائها في السجن وأسألها الصفح والمغفرة!

وتوقف عن الكلام قليلا، ثم ما لبث أن استطرد قائلا:

– .. وسأتزوجها إذا اقتضى الأمر ذلك!

ثم سكت، وقد ضم يديه إلى صدره، كما كان يفعل صغيرا حين يصلي، ورفع عينيه إلى السماء، ثم همس قائلا:

– ربي..أعني وأرشدني وطهرني ولا تكلني إلى نفسي وسوء رأيي.

وامتلأت عيناه بالدموع.

الفصل السابع

في سجن النساء

عادت ماسلوفا إلى السجن في الساعة السادسة مساء، وكان التعب قد نال منها إلى حد الإعياء وقدماها تؤلمانها، بعد أن قطعت المسافة الطويلة بين المحكمة والسجن ماشية ذهابا وإيابا، أما إجراءات المحاكمة في الجلسة فقد حطمت أعصابها تحطيما.. وأما الجوع فقد عضها بنابه مرات. وفي أثناء الاستراحة في المحكمة جعل حراسها يأكلون على مرأى منها خبزا وبيضا، فتحلب ريقها حتى ملأ فمها وغصت به، ولكنها استحيت أن تطلب منهم لقمة تسد بها جوعها الشديد فلما أعيدت الجلسة نسيت في موجة الاهتمام بتقرير مصيرها عضات الجوع، ولكنها شعرت بضعف شديد حين استمعت إلى الحكم الذي بت في أمرها وأخذها بجريرة هي منها براء.

لم تصدق أذنيها أول الأمر، وخيل إليها أن سمعها خانها، ولم تستطع أن تتصور أنها ذاهبة إلى الليمان، بيد أن الهدوء الذي قابل به القضاة والمحامون وجميع الحاضرين ذلك الحكم حملها على تصديق ما سمعت، ولكن ثورة شديدة قامت في نفسها فصاحت تعلن براءتها ثم غلبها ضعفها فأنشأت تبكي بكاء العاجز لما تبينت أن صيحتها لم تغير من قرار المحكمة شيئا، وكان مما أدهشها أن هذا القرار قد اتخذه ضدها قوم من الرجال كانوا جميعا – ما عدا وكيل النيابة– يرمقونها طيلة الجلسة بإعجاب ورغبة، وقد بكت كثيرا ولكنها شعرت بإعياء شديد لم يترك لها رغبة في شيء سوى

التدخين حين أعيدت إلى قاعة حجز المتهمين. وجلست ويداها في كميها تحملق في الأرض، بل في نقطة ثابتة منها على قيد خطوتين من مجلسها.. ولم تخرج من صمتها وجمودها إلا حين حين دس حارس من الحراس ثلاثة روبلات في يدها وهو يسألها: ألست أنت ماسلوفا؟ خذي هذه النقود التي بعثت بها إليك سيدة.

وسألته: "أي سيدة؟"

ولكنه أسكتها قائلا:

– خذيها وكفى.. لا ينبغي أن يراني أحد وأنا أتحدث إليك!

والواقع أن هذه النقود بعثتها إليها مدام كيتايف مدبرة البيت الذي كانت تعمل فيه. فبعد أن غادرت هذه السيدة قاعة الجلسة سألت الحاجب هل في وسعها أن تبعث إلى ماسلوفا بشيء من النقود، فلما أجابها بأن هذا في الإمكان أعطته هذه الروبلات الثلاثة ليوصلها إليها.

وكان فرح ماسلوفا بهذه النقود شديدا، لأنه سيتسنى لها أن تحصل بها على السجائر التي كان تفكيرها قد انحصر فيها حتى جعلت تفتح خياشيمها لعلها تشم رائحة التبغ يحملها الهواء من المكاتب المجاورة، وفي نحو الساعة الخامسة صدر الأمر إلى حارسين ليخرجا بها من قصر العدالة إلى السجن. فأعطتهما عشرين كوبكا وتوسلت إليهما أن يبتاعا لها رغيفين وبضع سجائر. فابتسم أحد الحارسين وتناول منها النقود وأحضر إليها ما طلبت.

وكان التدخين ممنوعا أثناء الطريق بين المحكمة والسجن، فوصلت ماسلوفا إلى غاية رحلتها دون أن تتمكن من إشعال سيجارة، وألفت نفسها في

ممر السجن وسط حوالي مائة سجين أحضروا من البلاد المجاورة. وكان فيهم الشاب والشيخ، وبعضهم من الغرباء النازحين إلى روسيا وكلهم قد كبلت أقدامهم بالأغلال، ومع هذا أخذوا يتحدثون بصوت عال، وفي الهواء رائحة قوية من عرقهم..كما أخذوا يلتهمونها بنظراتهم، واجترأ بعضهم فاقترب منها وجعل يغازلها، وهجم عليها عملاق منهم ذو لحية كثة فاحتواها بين ذراعيه، فدفعته عن نفسها، ولمحه مساعد رئيس السجانين فانتهره وأرغمه على التراجع منكمشا، ثم التفت المساعد إلى ماسلوفا وسألها: "وأنت.. كيف حالك؟". ولكنها كانت من الإعياء بحيث لم تستطع الجواب، فقال أحد الحارسين: "أنها حاضرة لتوها من المحكمة".

وأمره بأن يذهب بها إلى الرئيس، وما رآها هذا حتى دفعها بغلظة، ثم أشار إليها فتبعته مخترقة ممرات طويلة، ثم فتشت تفتيشا دقيقا جدا، فلم يعثر معها على شيء من الممنوعات، لأنها كانت قد أخفت لفائف التبغ في أرغفة الخبز، فلما انتهى التفتيش اقتيدت إلى زنزانتها في قسم النساء، حيث أخذت في الصباح لتشخص إلى المحكمة. وكانت هذه الزنزانة طولها ستة أمتار وعرضها أربعة، وفيها نافذتان، وإلى جوار الحائط موقد قديم.. أما الألواح الخشبية التي تستخدم فراشا فتشغل ثلثي الحجرة، وفي مواجهة الباب أيقونة شديدة القذارة تحترق أمامها شمعة، وإلى يسار الباب إناء النفايات! كان يشغل هذه الحجرة اثنتا عشرة امرأة وثلاثة أطفال، وكانت اثنتان من السجينات راقدتين، إحداهما معتوهة والأخرى مصابة بمرض يمنعها من النوم، وهي محكوم عليها في إحدى جرائم السرقة، أما الأخريات فكن جالسات يتجاذبن أطراف الحديث أو ينظرن من النافذة ليرين السجناء الجدد الذين تجمعوا في الفناء الخارجي للسجن، وبينهن امرأة طاعنة في السن، اسمها

"الكابليوفا" محكوم عليها بالأشغال الشاقة لأنها قتلت زوجها بضربة فأس حين ضبطته يغازل ابنتها، وهذه العجوز عميدة السجينات، وهي التي تبيع لهن النبيذ خلسة!

وعلى مقربة من هذه العميدة سجينة أخرى في السادسة عشرة من عمرها تدعى "فيدوتيا"، ويطلق عليها زميلاتها اسم "بينيتشا" وهي ذات محيا جميل وادع، وخدين كأنهما وردتان، وعينين زرقاوين صافيتين كعيون الأطفال الأطهار. ويتوج رأسها الصغيرة شعر كستنائي غزير طويل. وقد دخلت السجن لاتهامها بمحاولة تسميم زوجها في يوم عرسهما، لأنه قد فرض عليها فرضا، مع شدة كراهيتها له، على أن الأشهر الثمانية التي قضتها محبوسة رهن المحاكمة قد أصلحت بينها وبين زوجها فخفق قلبها بحبه، وقدرت لوالده شدة عطفه عليها وإعزازه لها، لكنها مع هذا حكم عليها بالأشغال الشاقة في سيبيريا، كما حكم على ماسلوفا جارتها في الفراش، وقد تعلقت بها في إخلاص، وصارت تؤدي لها عن طيب خاطر أنواعا شتى من الخدمات.

كان هناك امرأتان أخريان جالستان على الفراش أيضا في كسل وتراخ.. إحداهما في نحو الأربعين من عمرها، شديدة الشحوب والهزال، ولكن يبدو أنها كانت في صباها على قسط كبير من الجمال وبين ذراعيها طفل صغير ترضعه ثديها، وقد دخلت السجن لأنها اشتركت مع جماعة من الفلاحين رأوا أبناءهم الشبان يساقون إلى الاقتراع العسكري، فتجمعوا ليلا لاستعادة أبنائهم عنوة من أيدي حراسهم، وكان لها ابن أخ في المجندين، فأمسكت بعنان العربة التي كان فيها مع غيره من أنداده، أما سائر السجينات، فكن إلى جوار النافذة، وجباههن إلى قضبانها الحديدية، يتحدثن من بعيد، بالصرخات والإشارات مع السجناء الذكور الذين لقيتهم ماسلوفا عند عبورها ممر

السجن، وما كادت ماسلوفا تدخل الزنزانة حتى التفتن كلهن نحوها، وقالت إحداهن بصوتها العميق الأجش:

– ماذا؟. كيف جاءوا بك إلى هنا لقد كنا على يقين من أنهم سيبرئون ساحتك. بل لقد ظن بعضنا أن المحكمة ستقرر لك مكافأة أو منحة مالية! ومن يدري؟ لعلهم يفعلون ذلك غدا، فلا ضابط لما يمكن أن يحكم به القضاة إذا كانت أمزجتهم معتدلة! ولكن حظك سيء يا بنية. وسلمي أمرك لله، فإنه لا مفر من الإذعان لقضائه!

ولم تستطع ماسلوفا جوابا، بل اتجهت إلى سريرها وجلست فوقه إلى جوار "العميدة"، وأسرعت "فيدوتيا" إلى جوارها وقالت لها وهي تمسك يدها:

– أراهن على أنك لم تتذوقي في يومك طعاما.

وظلت ماسلوفا لائذة بالصمت، ووضعت ما معها من الخبز في الموضع الذي تضع فيه رأسها من الفراش، ثم خلعت قميصها المثقل بالتراب، والمنديل الذي يحيط بشعرها الأسود. وقالت لها "العميدة":

– ألم أنصح لك مرارا بأن توكلي عنك محاميا حاذقا؟ والآن: بماذا حكموا عليك يا ترى؟

وهمت ماسلوفا بأن تجيب، لولا أن خنقتها العبرات، فتناولت خبزها وأخرجت منه صندوق سجائر صغير قدمته إلى "العميدة". ولم تفهم العميدة لماذا أساءت ماسلوفا استخدام نقودها القليلة فاشترت هذه السجائر، بيد أن هذا لم يمنعها من تناول لفافة أشعلتها ثم جذبت منها نفسا، وبعد ذلك ردتها

إلى ماسلوفا، التي أقبلت على تدخينها بنهم عظيم، دون أن تكف عن البكاء في صمت، ثم قالت أخيرا في صوت متهدج:

– إنه الليمان!

فقالت العميدة:

– يا لهم من مصاصي دماء وأكلة للحوم البشر.. أهكذا يدان الأبرياء؟.. وكم سنة حكموا عليك؟

فرفعت ماسلوفا أربعا من أصابع يمناها إشارة إلى الحكم عليها بالسجن أربع سنوات، في حين تساقطت قطرات من دموعها على سيجارتها فبللتها، فألقت بها بعيدا في حنق شديد.. ثم خاطبتها سجينة كانت تقف قرب النافذة فقالت:

– لعمري ليس في هؤلاء الناس خير، ولا أمل في عدالتهم قط، فسواء عليهم أشقى الناس بهم أم نالوا حقهم.. وقد كان هذا إحساسي حين أكد الزميلات أنهم سيطلقون سراحك، وها قد خاب ظنهم وصدقت فراستي!

وعادت العميدة تقول:

– نعم.. أنهم لقساة الأكباد دائمًا. ولكن لو أنها استطاعت توكيل محام حاذق، وكان لديها من المال ما تدفع به أتعابه الضخمة إذن لبرأوها!

وصاحت سجينة أخرى من أقصى الحجرة، حبست للتسول:

– لا جدوى من التحسر، هذا قدر مقدور، ولا مهرب من القدر. وقد جرى القدر على الفقراء بأن يذلوا بالجوع أو السجن!

وأخرجت ماسلوفا من رغيفها ورقة مالية قدمتها للعميدة "كارابليوفا" لتعطيها شيئًا من النبيذ. ولما كانت العميدة لا تعرف القراءة فقد سألت عن قيمة هذه الورقة فلما علمت أنها تساوي روبلين وخمسين كوبيكا اتجهت إلى كوة وأخرجت منها قنينة خبأتها فيها، بينما أخذت ماسلوفا تقضم رغيفها في نهم ظاهر.

وقالت لها "فيدوتيا":

– لقد أبقيت لك شيئًا من الشاي، ولكنه برد الآن

وكان الشاي باردا حقا، ولكن ماسلوفا شربته بلذة وهي تقضم خبزها، ثم تجرعت النبيذ، بعد أن عزمت بجانب منه على "العميدة" وعلى سجينة أخرى محكوم عليها في جناية حريق عمد. فثلاثتهن كن من الطبقة الارستقراطية في الزنزانة.

وسرعان ما خفت حدة حزن ماسلوفا بالشراب والطعام وحديث الزميلات، فزايلها صمتها، وأخذت تسرد في غضب وغيظ تفاصيل المحاكمة وما جرى فيها، وأخذت تقلد صوت وكيل النيابة وحركاته، وروت كيف كان جميع الرجال بلا استثناء ينظرون إليها نظرات الرغبة والاشتهاء.

فصاحت إحدى السجينات:

– الرجال كالذباب الذي يقع على السكر أينما وجده. وهم إذا دعاهم داعي الواجب لم يلب منهم أحد، أما إذا تعلق الأمر بامرأة فإنهم يتركون الطعام والنوم ليهرعوا إليها.

فقالت ماسلوفا:

– وهنا أيضا في السجن ضايقني كثير من المساجين في البهو، ولم ينقذني إلا كبير السجانين.

وهبط الليل، فساد السكون أرجاء السجن الكبير، ولاذت كل سجينة بفراشها، ما خلا العجوز التي تسلخ من الليل معظمه راكعة تصلي أمام الأيقونة التي علاها الصدأ.

ولم تنم ماسلوفا تلك الليلة، فإن كلمة "الليمان" كانت تتراءى أمام عينيها وكانت تحدث نفسها قائلة:

– رباه! لست مستطيعة أن أصدق هذا الخاطر اللعين.. فمن عبادك من يأثم ولا يؤخذ بإثمه، أما أنا فيلقي بي ظلما إلى الليمان.

وسمعتها العميدة الراقدة إلى جوارها تردد اسم سيبيريا فقالت لها:

– لا تعذبي نفسك يا ابنتي، إن سيبيريا بلد من بلاد الله، وأهلها قوم من خلقه، فليس الأمر من السوء بحيث تتوهمين.

فردت عليها هامسة وهي تبكي:

– أعلم هذا يا خالة.. ولكن القلب مع هذا لا يستطيع ألا يحزن ويجزع لهذا القضاء!

فقالت العميدة:

– لا سبيل إلى تغيير حكم الله وقضائه فينا.

ثم همست كارابليوفا:

– ماذا هناك. هل تسمعين؟

وكان ينبعث من أقصى الغرفة صوت نشيج مكتوم صادر من إحدى السجينات، لأنها تذكرت أنها لم تلق في حياتها كلها شيئًا غير الإهانات والتحقير والآلام واللكمات واللطمات. وأرادت أن تتذكر غرامها الأول بعامل اسمه "فدكا" ولكن واأسفاه! لقد طغى على حلاوة الوصال ما كان في القطيعة من مرارة، فإن حبيبها أغرته الخمر بأن يعذبها بمادة كاوية ويتسلى مع رفاقه السكارى بمنظرها وهي تتلوى من شدة الألم!

وهمست ماسلوفا:

– إن آلامها تحز في قلبي.

فأجابتها كارابليوفا:

– وفي قلبي أيضًا.. ولكن من ذا الذي لا يتألم في هذه الحياة؟!

الفصل الثامن

في سبيل الإصلاح

استيقظ نكليودوف في صباح اليوم التالي لتلك الليلة وهو يشعر بأن حدثا هائلا وقع في حياته، ثم تذكر كاتيوشا وجلسة المحكمة وعزمه على أن يعيش منذ اليوم بعيدا عن جو الأكاذيب، وشاءت المصادفة السعيدة أن يتلقى بعد قليل خطابا من "ماريا فاسيلفتا" زوجة الماريشال، أحلته فيه من كل قيد، ومنحته حريته كاملة، وتمنت له أطيب التمنيات لمناسبة زواجه.

فابتسم نكليودوف في سخرية وقال لنفسه:

– زواجي.. ما أبعد هذا عن التحقيق.

ثم تذكر ما قطعه بالأمس على نفسه من الاعتراف للماريشال بكل ما كان بينه وبين زوجته من علاقات وطلب المغفرة منه لقاء الترضيات التي يطلبها، ولكنه حين فكر في هذا القرار، وجد أنه أخطأ في اتخاذه، فليس تنفيذه سهلا. ثم لماذا يشقى رجلا بإطلاعه على ما كان يجهل من أسباب شقوته؟ وقال كليودوف لنفسه: "لو أنه سألني لكان هناك محل لإجابته بالصدق.. أما وهو لا يعلم شيئا فلا مبرر للإساءة إليه بخبر نكبته في شرفه!"

.. وكذلك بدا له من الحمق أن يصارح "ميسي" بكل شيء، فإن ذلك من شأنه أن يزعجها، فضلا عن عدم جدواه. وخير بعد ذلك أن تترك لنفسها حتى تعلم الحقيقة دون أن تجرح عزتها بلا مبرر.

أما علاقته بكاتيوشا، فمسألة ينبغي ألا يكون فيها أدنى لبس.

– سأذهب إلى السجن، فأعترف لها بخسة مسلكي وأسألها الصفح.. وسأصارحها بأني مستعد للزواج منها، إذا اقتضى الأمر ذلك.

وملأته زهوا فكرة استعداده للزواج من كاتيوشا، فهو لم يعهد في نفسه مثل هذه الطاقة الحيوية منذ زمن طويل.. وقام من فوره فاتجه إلى قصر المحكمة، وكأنما استحال إنسانًا آخر.. أن زواجه من ميسي لم يعد ممكنا ولا محتمل الوقوع.. ولم يعد هو نفسه يستطيع أن يتصور إمكان سعادتها بهذا الزواج، ومضى يحدث نفسه:

– إنني غير أهل لأن أريها وجهي، فلو أنها استكشفت أي وحش في أعماقي لكان الموت أحب إليها مني، أنا الذي كنت أتنقصها لحبها للأناقة وميلها إلى التدلل، ثم إذا فرضنا أنني تزوجتها، فهل كان في وسعي أن أعيش إلى جوارها دون أن ينهشني الندم لأن كاتيوشا المسكينة في السجن، وأنها ستساق كما تساق الشاة إلى الليمان في سيبيريا عما قريب؟!

وشعر بالسرور لأنه غير رأيه، وعدل عن الزواج من "ميسي" وأنشأ يحاول نفسه فيما ينبغي عليه نحو كاتيوشا:

– يجب قبل كل شيء أن أقابل المحامي كي أعرف الخطوات التي تمت في موضوعها، ثم بعد ذلك أمضي لمقابلتها في سجنها لأعترف بين يديها بجرمي!

وتمثل لقاءها ومصارحتها باستعداده للتكفير عما جنت يداه، ففاضت نفسه بشعور لطيف واغرورقت بالدمع عيناه.. وما إن وصل إلى المحكمة

لحضور جلسة أخرى من الجلسات التي يشترك فيها في هيئة المحلفين، حتى سأل الحاجب عن مكان المسجونات المحكوم عليهن، وعن الجهة التي يمكنه الحصول منها على تصريح بزيارتهن، فأخبره الحاجب بأن النائب العام مازال هو المختص في الوقت الحاضر بإعطاء هذه الترخيصات، لأن الحكم لم يصبح بعد نهائيا لعدم نشر الحيثيات. وأبدى الحاجب استعداده لإرشاده إلى مكتب النائب العام بعد انتهاء الجلسة.

وكانت الجلسة قد بدأت فدخل القاعة مسرعا، ونظر إلى المتهم المتقدم للمحاكمة فوجده شابا هزيلا شاحب الوجه، ثم علم بأنه متعطل ضبط وهو سكران يهم مع آخر بكسر خزانة متجر، ووقف وكيل النيابة يكيل التهم للفتى المسكين ويصفه بالخطورة على الحياة الاجتماعية. فقال نكيلودوف في نفسه:

– مخلوق خطر على النظام الاجتماعي؟.. أجل!.. مثل متهمة الأمس كاتيوشا! هؤلاء هم الذين يسميهم المجتمع مخلوقات خطرة، أما نحن فلسنا خطرين على الإطلاق... لا أنا، ولا من اتصل بهم في بيئتي ممن يمحضونني الإخلاص.. مع أنه من الواضح أن هذا الشاب لم يصبح مجرما إلا بإكراه الظروف المحيطة به. فلو أن رجلا من أهل الخير عطف عليه ومد إليه يد المعونة، ونصح له ألا يسرف في شرب الخمر لما ضل سواء السبيل. ولكن المسكين لم يجد ناصحا أمينا، وأحاط به إخوان السوء يزينون له الخمر والميسر ومخادنة النساء والتغرير بالفتيات الساذجات. وها هو ذا بعد أن أثم وسرق، لا أحد يحاول هدايته وإثابته، بل ينحون عليه بالملائمة، ويتعقبونه بالعقاب. أن هذا لفظيع!

وفي غمرة هذه الأفكار لم يتبين نكليودوف شيئًا مما جرى في الجلسة من أطوار الاتهام والدفاع، فأخطاء المجتمع قد أفزعته إلى حد لا يطاق، حتى عجب من نفسه كيف لم يفزعه ذلك من قبل.. وكيف لم يفزع لها الناس كافة، بل هم يتعقبونها في هدوء ورضى!

وما كادت الجلسة ترفع للاستراحة حتى غادر نكليودوف القاعة، وفي عزمه ألا يدخلها ثانية وألا يشترك في هذه المهزلة مهما كانت النتائج، واتجه إلى مكتب النائب العام، وألح في ضرورة مقابلته فورا لمسألة عاجلة. وتلقاه النائب واقفا، إعرابًا عن استيائه لما أبداه من إلحاح في الدخول عليه، وسأله بصوت أجش:

– ماذا تريد؟

فقال له:

– اسمي نكليودوف وأنا محلف بالمحكمة، ولابد لي من مقابلة الفتاة التي حكم عليها أمس، المدعوة "ماسلوفا".

– ماسلوفا؟.. أني أذكر قضيتها. أليست هي المرأة التي حكم عليها لأنها سممت رجلا؟ لماذا تريد أن تقابلها؟

– لسبب شخصي!

– إنها في السجن العام في انتظار أسباب الحكم، والزيارات في هذا السجن تتم في أيام محددة من قبل، فاتصل بمدير السجن العام شخصيا في هذا الأمر.

– ولكن الظروف تحتم أن أراها بأسرع ما يمكن!

– وما وجه إلحاحك واهتمامك الشديد برؤية هذه المذنبة؟

– لأنها أدينت وحكم عليها برغم براءتها، ولأنني أنا كنت السبب في زلتها ونزولها إلى هذا الدرك!

– وكيف كان ذلك؟

– لأنني أنا الذي غررت بها وعبثت بعرضها، فساقها ذلك إلى مهاوي الرذيلة، ثم إلى قفص الاتهام في محكمة الجنايات.

– ولكني لست أرى وجه الارتباط بين ما ذكرت وبين طلبك مقابلتها؟

– أني أريد ملازمتها، و... والزواج منها!

واضطرب نكليودوف واغرورقت عيناه بالدموع.. وصاح به النائب العام في دهشة واستنكار:

– تتزوجها؟ تتزوجها؟ ألست عضوا في مجلس المحلفين؟... ألست تحمل لقب الإمارة؟ ألست سليل أسرة عريقة ووريث ثروة طائلة ومركز اجتماعي ممتاز؟!

فأجابه نكليودوف بجفاء: "لست أرى وجه الارتباط بين طلبي وبين هذه الأشياء!"

فابتسم النائب العام وقال له: "لا وجه مطلقا، ولكن رغبتك في الغرابة والبعد عن المألوف بحيث أنها...".

فقطع نكليودوف كلامه وسأله متلهفًا: "ألا يمكن الترخيص له في مقابلتها؟"

– أجل. أجل. سأعطيك تصريحا بالمرور، فتفضل بالانتظار لحظة.

وكتب النائب التصريح على ورقة وقدمها لنكليودوف، فوضعها في جيبه وقال له:

– أحب أيضا أن أحيطك علما بأنني لا أستطيع الاستمرار في القيام بمهمة المحلف في الدورة القضائية الحالية.

– في هذه الحالة يجب أن تقدم للمحكمة أسبابا مقبولة، فهل لديك مثلا هذه الأسباب؟

– أسبابي غاية في البساطة.. أني اعتبر الأحكام القضائية عديمة الجدوى، بل منافية للأخلاق!

فابتسم النائب ابتسامته الساخرة فلم يزد على أن قال:

– آه... عظيم!

ثم استطرد بعد لحظة وقال باللهجة المتهكمة المهذبة نفسها:

– إنك تقدر ولا شك أن النائب العام لا يسعه بأي حال أن يشاركك رأيك هذا، لذلك أنصح لك بأن تعلن الأسباب للمحكمة، ولها الرأي الأعلى. فإذا رأت أنها مقنعة قبلتها، وإذا لم تجدها كذلك حكمت عليك بغرامة لامتناعك عن القيام بواجبك.. فتوجه إذن بطلبك إلى المحكمة رأسًا.

فصاح نكليودوف بحدة ظاهرة:

– لا أريد أن أعود إليها!

وخرج محنقا، بعد أن هز النائب كتفيه وانحنى له علامة على انتهاء المقابلة، ثم قصد من توه إلى السجن العام وطلب مقابلة ماسلوفا، فعلم أنه يجب الحصول على ترخيص آخر بالمقابلة من محافظ السجن نفسه، ولما طلب مقابلة المحافظ علم أنه انصرف من مكتبه، فلم يجد بدا من العودة إلى داره والانتظار إلى الغد!

وما إن وصل إلى بيته، حتى تناول دفتر مذكراته الذي أهمله منذ زمن طويل، وأعاد تلاوة بعض صفحات منه، ثم كتب فيه:

"لقد تركت هذه المذكرات اليومية منذ عامين؛ لأنني اعتبرتها من عبث الطفولة، ولكنني أعود إليها اليوم بنظرة جديدة، فهي حديث صريح صادق مع نفسي وسريرتي، تلك السريرة التي ظلت نائمة حتى أيقظها حادث ٢٨ ابريل. ففيما كنت أقوم بواجبي محلفا في محكمة الجنايات، رأيت في قفص الاتهام تلك الفتاة كاتيوشا التي أغويتها فيما مضى وغررت بها وسلبتها أثمن ما تملك. وقد حكم عليها بالأشغال الشاقة بسبب لبس لم أتنبه إليه في قرار المحلفين.. وقد قابلت اليوم النائب العام وحصلت منه على ترخيص لزيارتها، ولكني لم أستطع مقابلتها اليوم، بيد أني عازم على مقابلتها وطلب عفوها وإصلاح جنايتي عليها، ولو أدى ذلك إلى زواجها... فيا إلهي كن نصيري".

الفصل التاسع
ساعات في السجن

قضت ماسلوفا ليلتها في السجن بعد الحكم عليها، وهي تلتمس الكرى فلا تجده، وبقيت تتقلب فوق فراشها الصلب، وقد ثبتت عينيها في موضع أمامها وراحت تتخيل أيامها المقبلة في سيبيريا وتحدث نفسها:

– لن أتزوج سجينا مهما تكن الأحوال، فإني أفضل أن يكون زوجي من السجانين، أو رؤسائهم، أو كاتبا أو حاجبا، أو ملاحظا، فهؤلاء لهم نفوذهم... ولكن هذا لن يتم إذا كان طعام السجن وقيوده ستسبب لي نقصا ظاهرا في وزني، فإن هذا سيذهب بنضرتي ويقضي على مستقبلي..

وتمثلت لها نظرات الغزل التي كان يرمقها بها رئيس المحكمة وعضواها والمحامون وجميع من كانوا في القاعة من الرجال، وفكرت في جميع أطوار حياتها، وما جره عليها جمالها من تعقب الرجال لها بالرغبة الجامحة التي لا تعرف الوقوف عند حد.

تذكرت كل ما مضى من عمرها، ما خلا كل ما له صلة بنكليودوف وقصته معها، لأنها كانت قد انتزعت من نفسها وذاكرتها جميع الصفحات التي سطرت فيها أحداث طفولتها ومراهقتها وغرامها الأول، فإن تذكار هذه الأيام الأولى كانت تسبب لها ألمًا لا تطيقه، حتى لقد بلغ من زهدها في إثارتها، أنها لم تكن تتراءى لها فيما ترى من أحلام!

وقد خرجت من تقليب ماضيها الحافل بنتيجة واحدة، أن جميع من اتصلت بهم قد عملوا على استغلالها أسوأ استغلال.. النساء يجبين من ورائها المال، والرجال يستغلونها في قضاء شهواتهم الظامئة!

وتذكرت لهذه المناسبة عبارة كان يكررها على سمعها الكاتب الكبير الذي حازها منذ سنوات:

– ليس من هدف للحياة سوى إشباع الغرائز وإرواء غلتها، وهذا هو لباب السعادة الوحيد!

وقالت لنفسها: "هذا حق! فكل امرئ يعيش في هذه الحياة لنفسه وملذاته، وكل ما يتشدق به المتشدقون عن الله والرحمة والمحبة وهم وضلالة".

ولطالما سألت نفسها عن علة هذا الاضطراب القبيح في أمور هذه الدنيا، وعن سبب كيد الناس بعضهم لبعض بلا مبرر، ولكن توافه الحياة، سيجارة أو كأسا أو ساعة غرام، كانت تنسيها هذا التساؤل.

***

.. وكان اليوم التالي لهذه الليلة النابغية يوم أحد، فلما دوت نوبة اليقظة، كان أول ما خطر ببالها وجارتها "كارابيلوفا" تلقي عليها تحية الصباح أنها صارت من أهل اليمان، ثم جلست على الفراش وجعلت تنظر حولها، وكان النسوة جميعا قد نهضن واقفات، ولم يبق راقدا إلا الأطفال الصغار.. وقبل أن يتسع لها الوقت لتصفف شعرها وتغطي رأسها بالمنديل، كان المدير ومعاونوه قد وصلوا. وصاح السجان صيحته التقليدية: "تمام!".

وسرعان ما خرجت السجينات من الزنزانات ووقفن أمامها في صفين متوازيين، وكان على الواقفات في الصف الخلفي أن يضعن أيديهن على

أكتاف من الصف الأمامي. وبدأت عملية "التمام"، أي إحصاء السجينات. فلما انتهى اقتيدت السجينات إلى الكنيسة بإشراف ملاحظة يقظة. وكانت ماسلوفا في صف واحد مع "فيدوتيا" في وسط حوالي مائة سجينة، عليهن جميعا ثياب السجن البيضاء، ما عدا بعض ثياب ملونة وسط كل هذا البياض، فقد كان بين السجينات من لسن منهن، وإنما هن متطوعات للحبس، لأنهن زوجات مسجونين، أبت عليهن شيمتهن إلا اصطحاب أزواجهن ومشاركتهم سجنهم، ونفيهم بعد ذلك إلى سيبيريا، وكان مع معظمهن أطفال!

وما إن وصل الطابور الطويل إلى الكنيسة حتى ساد الصمت وسكتت الهامسات، ودخلن خافضات رؤوسهن وهن يرسمن على صدورهن ووجوههن علامة الصليب، ثم جلسن إلى اليمين متلاصقات!

وحضر السجناء في ثياب السجن الرمادية، فاحتلوا مقاعد اليسار والوسط.. أما أعلى الكنيسة فاحتله المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة، وقد بدت رؤوسهم نصف حليقة وصليل أغلالهم لا ينقطع.. وفي جانب منفصل جلس المحبوسون رهن التحقيق!

وكانت هذه الكنيسة الملحقة بالسجن قد جدد أكثرها، وطليت جدرانها وزودت مع سقفها بصور صارخة الألوان، يكثر فيها الزركشة والتذهيب، وقد تبرع تاجر ثري لهذا الغرض بأكثر من عشرة آلاف روبل.

وأخيرا سرت رجفة بين الحضور، وظهر مدير السجن وحاشيته يخترقون الصفوف في أبهة وجلال، ثم اتخذوا لهم مجلسا في مقدمة الصفوف، وبدأت الصلوات والترتيلات الطويلة، وكان الحاضرون يقطعونها بين الحين والحين صائحين: "ارحم يا رباه!"

وكان السجناء جميعا يرسمون على وجوههم علامة الصليب ثم يخرون على الأرض ساجدين، عند كل وقفة من وقفات الصلاة، ولكنهم جميعا تنفسوا الصعداء عندما انتهت الصلاة، وطوى الكاهن كتابه ثم توارى في الهيكل.. ولم يبق من المراسم إلا توزيع البركة على المصلين، فتناول الكاهن لهذا الغرض صليبا كبيرا كان فوق مائدة في الهيكل، فلثمه ثم حمله في يده ومضى إلى أن وقف في وسط الكنيسة، فأقبل عليه المدير ومعاونوه فقبلوا الصليب، ثم تبعهم السجناء عامة، فبذل الكاهن لهم الصليب بيمينه، وجعل يقطع الوقت بالحديث مع المدير. غافلا عما في وضع الصليب بهذه الهيئة من خطر على وجه من يهم بتقبيله من السجناء والسجينات.

ولم يخطر ببال أحد في ذلك اليوم، ابتداء من الكاهن والمدير إلى ماسلوفا أن هذا السيد الجليل، عيسى المسيح، الذي تشدقوا باسمه، كان يناهض الوثنية، ويقول بالصلاة الفردية، والبعد من الطقوس المظهرية في العبادة وأنه وهو المحرر المخلص كان عدوا للسجن والقصاص.

ولكن الكاهن المسكين لم يفكر أبدا في عبث ما يقوم به من خدمة، ولاسيما أن هذه الأعمال تتيح له دخلا يمكنه من إعالة أسرته.

أما السجناء والسجينات، فهم يؤمنون بجدوى الصلوات ذات الصيغ المحفوظة، وتقديم النذور والتوسلات إلى الإيقونات، وإشعال الشموع أمام صور القديسين، وهم جميعا لا يشكون في أن هذه الأشياء إن لم تسعفهم بالسعادة في الحياة الدنيا، فهي ستكفلها لهم في الدار الباقية بعد انتهاء الأجل.

وعلى هذا الرأي كانت ماسلوفا، أثناء القداس تشعر بنوع من التقوى العصبية والخشوع الممزوج بالسأم والملل.

الفصل العاشر
الزيارة الأُولى

غادر نكليودوف منزله مبكرا في صباح اليوم التالي وتوجه إلى السجن، فوجده مازال مغلق الأبواب، ووجد أمامه بعض الرجال والنساء وفي أيديهم لفافات صغيرة بها هدايا لأهليهم السجناء، وعلى مقعد إلى جوار الباب، جلس أحد ملاحظي السجن يسجل أسماء الزائرين ومن يودون زيارتهم من السجناء، فطلب نكليودوف مقابلة كاترينا ماسلوفا، وسجل الملاحظ اسمه واسمها، ثم سأله نكليودوف:

– لماذا لا تدعون الناس يدخلون فورا؟

فأجاب:

– لأن القداس في كنيسة السجن لم ينته بعد.

فتركه نكليودوف واختلط بالجموع المنتظرة.. وما لبثت أبواب السجن أن فتحت جميعها في وقت واحد، وظهر ضابط في زيه الرسمي وفي صحبته سجان، وأعلن الملاحظ الذي كان يسجل الأسماء أن في استطاعة الزائرين أن يدخلوا، فأسرع الناس يدخلون متزاحمين!

وعند الباب كان حارس من حراس السجن يحصي الداخلين وهم يمرون أمامه. ومن داخل الباب حارس آخر يراجع عددهم، حتى لا تتاح الفرصة لأحد من السجناء أن يتسرب مع الخارجين.. وحينما هم ذلك الحارس بلمس

كتف نكليودوف، تراجع هذا إلى الوراء مأخوذا مفكرا، وبدا عليه التمرد، بيد أنه تذكر نبل أهدافه وسمو غايته، فخجل من هذه الأنفة التي أبداها.. وترك الحارس يتحسس ثيابه، ثم دخل فإذا وراء الباب قاعة كبيرة، على نوافذها قضبان من الحديد، وهذه هي قاعة الانتظار.. ولمح نكليودوف في تلك القاعة صليبا كبيرا عليه تمثال للسيد المسيح، فاستولت عليه الدهشة لوجوده هناك وقال لنفسه:

– لماذا وضعوا هذا الصليب هنا؟.. وكيف يجعلون "المخلص" و"المنقذ" بين السجناء مسلوبي الحرية المقضي عليهم بالهلاك ؟!

ومضى في بطء وراء جموع الزائرين، وقد تزاحمت في صدره ضروب مختلفة من الإحساسات، بين تقزز من السجناء المذنبين، وشفقة على الأبرياء المظلومين، وإشفاق على نفسه من المقابلة، التي هو مقدم عليها، ولازمته هذه الخواطر حتى دخل قاعة استقبال السجينات، فاسترعى انتباهه لأول وهلة شدة لغط الأحاديث وجلبتها العالية، ولكنه أدرك السبب حين رأى جميع الزوار وقد ألصقوا وجوههم بحاجز من قضبان الحديد يرتفع من الأرض حتى السقف. وفي الجانب الآخر وقفت السجينات وراء سياج آخر على بعد أكثر من متر، بحيث يتعذر –بل يستحيل– على أحد تقديم شيء من الممنوعات إلى إحدى السجينات خلسة.. كما يتعذر تبادل الأحاديث إلا مع الصياح الشديد.

وكان من المناظر التي أثرت في نفسه حقا، أن رأى أزواجًا وأبناء كثيرين بين الزائرين، راحوا يتبادلون الصياح مع زوجاتهم وأمهاتهم السجينات في لهفة

وتحسر واضطراب، ولكنهم قلما يستطيعون التفاهم لشدة الضوضاء برغم الاستعانة بالإشارات!

وقدر نكليودوف أنه مضطر إلى محادثة ماسلوفا على هذا النحو، فثارت نفسه وفاضت بالسخط على هذه النظم السخيفة، وأدهشه أن أحدا لا يستنكر هذه القيود أو يشكو منها.

ولم يتبين وجه ماسلوفا بين الوجوه الكثيرة الملتصقة بالسياج الداخلي، ولكنه رأى في أقصى القاعة شبحا منزويا، فأدرك أنها هي، فأخذ قلبه يدق دقا عنيفا، وتلاحقت أنفاسه، ثم تقدم من الحاجز الحديدي، ولكنه حار ماذا يفعل، فسكت لحظة لعلها تقترب من السياج من تلقاء نفسها. ولكنها لم تتحرك، ولم يبد عليها أنها تفكر في الاقتراب.

وسألته إحدى الملاحظات وقد رأت حيرته:

– ما اسم السجينة التي تريد التحدث إليها؟

فأجابها هامسا: "كاترينا ماسلوفا".

فنادتها الملاحظة قائلة:

– اقتربي يا ماسلوفا.. هنا من يسأل عنك..

فنظرت ماسلوفا حولها ثم تقدمت نحو السياج فوقفت بين سجينتين وحدقت في الأمير وهي لم تعرفه بعد، وإن أدركت من فخامة ملبسه أنه رجل غني، فرفت على شفتيها ابتسامة وقالت:

– أمن أجلي أنا أتيت يا سيدي؟

فأجابها نكليودوف بصوت ليس أعلى مما درج عليه في كلامه العادي:

– نعم أردت أن أراك..

ولم تتبين عبارته لشدة الضوضاء حولهما، وإن كادت تعرفه من وقفته وهيئته، فاختفت الابتسامة من وجهها، وانتشرت على جبهتها التجعدات الكثيرة. وصاحت: "أنت؟.. هل أتيت أخيرًا؟"

وكادت عبراته تخنق صوته، وجاهد لإخفائها كثيرا ولكن ماسلوفا لاحظت ذلك فقالت لنفسها: "أنه يشبهه كثيرا!".. وبدا وجهها وقد اشتدت صفرته، فاستطرد هو بصوت جهوري كمن يلقي درسا:

– لقد أتيت لكي أسألك المغفرة!

وما إن أتم هذه العبارة حتى ملأه الخزي، وأشاح بوجهه، بيد أنه بذل جهده حتى تغلب على ذلك الشعور، واستأنف كلامه قائلا:

– سامحيني.. فإني قد أثمت في حقك!

فظلت صامتة جامدة، ونظرها غير مثبت فيه.. أما هو فابتعد عن السياج قليلا، لكي يكفكف عبراته!

وعجبت إحدى الملاحظات لابتعاده من السياج، فسألته في ذلك. وأجابها بعد أن جفف دموعه:

– ليس في وسعي أن أسمع كلمة من وراء هذا السياج!

ورأت الملاحظة أنه في الإمكان إخراج ماسلوفا إلى القاعة، لكي تجلس إلى جواره ويتسنى لهما الحديث في هدوء، فصاحت بإحدى السجانات

لتخريج ماسلوفا إليها، وإن هي إلا دقيقة حتى كانت ماسلوفا تدخل القاعة من باب جانبي، فاقتربت من نكليودوف حتى وقفت قبالته ثم غضت من بصرها. وكانت هادئة الوجه، وإن كانت عيناها تبدوان حمراوين مقمصى الأجفان، رغم التماعهما الشديد!

وقالت الملاحظة: "يمكنكما أن تتحدثا هنا كما تشاءان".

ثم انصرفت مبتعدة عنهما، فاتجه نكليودوف إلى مقعد مثبت في الجدار، ماسلوفا تحدجه بنظرات تمتزج فيها الدهشة بالتساؤل، ثم لم تلبث أن تبعته وجلست على المقعد إلى جواره. فقال لها:

– أعلم أنه يشق عليك أن تسامحيني!

وخنقت عبراته صوته، ثم استطرد بعد قليل فقال:

– إذا كان إصلاح الماضي متعذرا، فإني سأعمل كل ما في وسعي في المستقبل.. فصارحيني..

ولكنها لم تجب عن سؤاله بل سألته: "كيف عثرت علي؟"

وأجابها وهو يسأل الله أن يشدد عزيمته!

– لقد كنت منذ يومين عضوا في هيئة المحلفين في محكمة الجنايات التي نظرت في قضيتك.. ألم تعرفيني يومئذ؟

– كلا لم أعرفك!.. ولم يكن لدي فراغ لتعرف وجوه الحاضرين!

فاحمر وجهه خجلا وقال متلعثما: "لقد كان لك ولد؟..".

فقالت: "بلهجة مقتضبة ظاهرة الخبث والقسوة، وهي تشيح بوجهها:

– لقد مات فور ولادته!

– لماذا؟ وكيف؟

– لقد كنت مريضة وأوشكت أن أموت!

– وهل تركتك عمتاي ترحلين من بيتهما؟

– ومن ذا الذي يرضى أن يحتفظ بوصيفة ذات ولد؟ إنهما لما رأتاني حبلى طردتاني فورا، ولكن لماذا ننبش الماضي؟ هذا حديث لا طائل تحته، ولم أعد أذكر من أمره شيئا!

– كلا.. لم ينته الأمر بعد، فإني أريد أن أكفر عن خطيئتي!

وأدهشه أنها تنظر إليه نظرة غريبة جدا، وعلى شفتيها ابتسامة تجمع بين الخبث والسذاجة.

والحق أنها لم تكن تتوقع أي ترى الأمير في هذا اليوم، ولاسيما في هذا المكان بالذات، ولهذا استولت عليها الدهشة حين عرفته، وأخذت الذكريات المطوية تنشر أمامها تباعًا. فتذكرت ذلك الحب العنيف الجارف الذي أثاره في جوانحها وجوارحها، وكيف خلق لها ذلك الحب عالما جديدا سعيدا، لكنها ما لبثت قليلا حتى استحال ذلك الحب إلى قسوة ومذلة وآلام كانت أقوى من أن تتحملها، لهذا اجتهدت منذ زمن بعيد أن تنفيها عن خاطرها، وتدفنها تحت طبقة كثيفة من مشاغل حاضرها!

فلما وقع نظرها على الأمير، جعل عقلها يقارن بين هذا الرجال الماثل أمامها، وذلك الشاب اليافع الذي ألهب كيانها ومشاعرها حبًا منذ عشر سنين. فإذا هذا الرجل الذي تراه الآن رأى العين، وقد صارت له لحية مهذبة

مشذبة، وعليه كسوة أنيقة، ليس هو ذلك الفتى الذي قتلها حبا، فهو ليس اليوم إلا "نسخة" من ذلك النمط من الرجال الذي لا يرى في المرأة إلا ملهاة ليلة أو متاع ساعة. إنه من طراز "زبائنها" في السنين الأخيرة. أنه واحد ممن تتسقط معرفتهم كي تفيد منها إلى أقصى ما تستطيع. ومن هنا راحت تبتسم له في حنان لطيف.. مشغولة بالتفكير فيما يجب أن تفعل كي تصل إلى جيبه من أقصر الطرق، وعلى أوسع نطاق.

وقالت له أخيرًا:

– لقد انتهى كل هذا، وليست الآن إلا امرأة حكم عليها بالأشغال الشاقة أربع سنوات!

واختلجت شفتاها وهي تنطق هذه الكلمات المروعة.. فقال لها برقة:

– أعلم هذا، ولكني واثق من براءتك!

فقالت:

– إني لبريئة حقا، وقد قيل لي أن كل شيء في دور القضاء يتوقف على مهارة المحامي وحذقه، ولكن أجر المحامي الحاذق شيء كثير!

فقال:

– هذا صحيح!.. وقد اتصلت بأحد كبار المحامين من أجلك.

فقالت:

– ينبغي إذن ألا تضن بالمال، فالمعول كله على مهارة المحامي.

قال:

– سأبذل في هذا السبيل كل ما في وسعي.

وساد الصمت بينهما لحظة، ثم ابتسمت وقالت له:

– كنت أريد أن أطلب منك شيئًا من المال.. إذا كان هذا في الإمكان، ليس شيئًا كثيرًا.. عشرة روبلات.

فأجابت في ارتباك وهو يخرج حافظة نقوده: "طبعا. طبعًا". وكان الحارس يذرع الغرفة ذهابا وجيئة، فرشقته بنظرة خبيثة خاطفة ثم همست لنكليودوف قائلة: "لا تعطني شيئًا أمامه وإلا أخذوه مني".

فأخرج نكليودوف خلسة ورقة بعشرة روبلات، وأخفاها في راحة يده بسرعة حتى لا يراها الحارس المقبل. وحدث نفسه وهو يعجب من نظرتها الخبيثة إلى الحارس، وإلى يده المطوية على النقود: "أين هذه المرأة من تلك الفتاة البريئة النظرات؟!"

وعاوده الشعور بأنها لن يرجى لها صلاح، وأنها لن تكون إلا عبئًا فوق كاهله، وسيكون جهده وارتباطه بها بغير طائل، لأنها لن ترتفع عن حالتها الراهنة قط، ولن يجني من هذا الجهد الضائع إلا إثارة المتاعب في طريقه، والهبوط به في نظر الناس، وعرقلة مستقبله، وتقييد حركاته وتعويق تيار حياته. فخير من هذا كله أن يمدها بالمعونة المالية كلما أمكن ذلك، ويتركها بعد ذلك لنفسها وظروفها!

كان يعاني أزمة نفسية هائلة، فدعا الله أن يعينه على اجتيازها.. ثم اتجه إلى ماسلوفا وقال لها:

– كاتيوشا!.. لقد جئت إليك الآن لأطلب الصفح منك، ولكنك لم تجيبيني هل صفحت عني أم لا... وهل إلى عفوك يوما من سبيل؟

ولكن المسكينة لم تكن مصغية إليه، بل كانت مشغولة بتنقيل بصرها بين الحارس وبين يده المطوية على الروبلات العشرة، فلما سنحت لحظة لم يلتفت إليها فيها الحارس، اختطفت الروبلات العشرة من يد نكليودوف اختطافا وأخفتها بسرعة البرق في صدرها، وقالت له عندئذ في تهكم خفيف:

– إن كلامك هذا يدعو إلى الضحك!

فأيقن نكليودوف أنها ما زالت تضمر له حقدا يحول دون صفحها عنه على أن هذا لم يزده إلا عطفًا عليها كأن قوة خفية تربطه بها، استبدت به الرغبة في بعث عواطفها القديمة نحوه. فهو يريدها أن تعود كما كانت فيما مضى وقد خلا قلبها من الحقد عليه. فقال لها:

– كاتيوشا؟ لماذا تخاطبينني على هذا النحو؟ إني أعرفك وأذكر كيف كنت..

فأجابته بجفاء: "لماذا تنبش الماضي؟"

فقال لها: "إني أذكر ذلك الماضي وأستعيده، لأنني عازم على محو خطئي القديم والتكفير عنه"

وكان يريد أن يصارحها برغبته الصادقة في الزواج منها، ولكن نظراتهما تلاقت في تلك اللحظة، فرأى في عينيها من الحقد الصارخ ما ثبط عزيمته فسكت، وفي هذا الوقت كان الزوار قد أخذوا في الانصراف، فاقترب منه الحارس ونبهه إلى انتهاء وقت الزيارة، ونهضت ماسلوفا فمد يده قائلا لها:

– لم يزل عندي الكثير مما أود قوله لك، ولكن الكلام الآن لم يعد ممكنا.. فسأعود إليك في فرصة أخرى.

فقالت له: "يخيل إلي أنك قلت كل شيء!".

فقال:

– سأحاول أن أجتمع بك في مكان أنسب للحديث، وحينئذ سأفضي إليك بشيء هام.. شيء لابد أن أقوله لك.

فقالت:

– أنت وشأنك.. تعالى متى شئت!

وابتسمت له ابتسامة "تجارية مهينة"، فهمس لها وهو يفارقها في حنان شديد:

– إنك قد صرت لي أختا!

وتمتمت مسلوفا وهي تهز رأسها: "إن هذا لعجيب!"، ثم انصرفت ولم تزد على ذلك حرفا!

***

أعتقد نكليودوف منذ تلك المقابلة الأولى لكاتيوشا أنها فهمت مراده وأدركت رغبته الصادقة في التكفير عن جرمه، وأدهشه وأقض مضجعه أنها لم تعد تشغل نفسها بأمر الماضي.. والواقع أنها لم تكن تفكر في وضعها الراهن أو تضيق به: بل لعلها كانت مزهوة باحترافها البغاء، أو هي بذلك راضية على الأقل. فهي لا تشعر بالخزي إلا من شيء واحد هو أنها سجينة.

إن كل إنسان تتوقف نظرته إلى أي شيء في الحياة على موقفه منه وعلى ظروفه المحيطة به ماديا ونفسانيا. لهذا كان غير عجيب أن تختلف نظرة المجرمين إلى أنفسهم عن نظرتنا نحن إليهم كل الاختلاف، بل أن أحدهم ليفاخر بجرمه كما يفاخر الغني بغناه، والحاكم بسطوته، والقائد بأكاليل الغار المعقودة فوق جبينه..

وكذلك أصبحت ماسلوفا لا ترى في نفسها ومهنتها إلا خيرا، لأن الناس جميعا في حاجة إلى الحب بمعناه الجنسي لا فرق في ذلك بين شيخ وشاب وعالم وجاهل وغني وفقير!

إنها ترى نفسها امرأة مغرية لكل هؤلاء، ويزهيها أن في يدها أن تمنح رضاها أو تمنعه كما تشاء. وكيف لا تشعر بالزهو يملأ جوانحها، وهي لم تتصل برجل منذ عشر سنين إلا كان همه الأكبر أن يتمتع بجسدها.. هكذا كانوا جميعا ابتداء من نكليودوف إلى هؤلاء السجانين، حتى لقد درجت على أن تسقط من الوجود كل رجل لا تحس أنها يشتهيها، فالعالم عندها مجموعة ضخمة من الرغبات الحسية المحضة يتبادلها الرجال والنساء، أو بالأحرى الذكور والإناث.

وقد طابت لها هذه الصورة للحياة الدنيا، وتمسكت بها تمسكا شديدا، لعلمها أنها إذا خسرتها خسرت بذلك الأساس الذي تقوم عليه أهمية وجودها في الحياة!

وكانت لا تعاشر من الناس إلا من يرون في الحياة رأيها، لهذا أجفلت حين رأت نكليودوف يريد أن يخرجها من هذا الجو إلى جو آخر لم تألفه، فقاومت جاهدة حتى لا تفقد الأهمية التي تعتقدها لنفسها في حياتها الراهنة،

ولهذا السبب أيضا كانت تكره استعادة ذكرياتها الأولى، لأن هذه الذكريات تخالف الصورة الجديدة التي استراحت إليها. فلم يعد نكليودوف في نظرها ذلك الرجل الذي أحبته حبا طاهرا فيما مضى، ولكنه رجل غني تحب أن تستغله، وينبغي –بحكم أصول مهنتها– أن تستغله..وهي على استعداد تام لأن تحب ذلك الحب غير المكترث الذي توليه أي عميل يلجأ إليها متوسلا بالمال.

أما نكليودوف فكان يحدث نفسه وهو منصرف من السجن بقوله:

– إنني في هذه المرة لم أستطع أن أقول لها كل ما كنت أريد أن أقوله لها، لم أقل لها أنني سأتزوجها.

ومر خلال الباب الكبير بالملاحظين الذين يحصون الخارجين من الزوار، وتلقى لمسة الملاحظ لعاتقه دون أن يبدو عليه أنه قد تنبه لها.

الفصل الحادي عشر
الواجب قبل كل شيء

كان نكليودوف قد اعتزم أن يغير نهج حياته، ففكر في تأجير مسكنه تسريح خدمه الكثيرين، والنزول في فندق عادي، ولكن "أجربين نتروفنا" وصيفة أمه العجوز أقنعته بألا جدوى من تغيير أي شيء في معيشته لأن أحدا لن يقبل على استئجار مسكنه في الصيف إذ يغادر الناس المدينة.

ولما أمعن في التفكير، هاله أن لديه كثيرًا من الأشياء التي لا نفع لها، على أنه رأى أن تغيير حياته لا قيمة له قبل أن يتحقق قبول ماسلوفا ما عرضه عليها، وقال لنفسه: "كل شيء سيتغير لا محالة من تلقاء نفسه متى وضح مصير ماسلوفا، وسواء أخرجت من السجن أم أرسلت إلى سيبريا فسأرتبط بها على كل حال!".

وفي اليوم المحدد، ذهب إلى مكتب المحامي "فانارين" فاستقبله هذا مرحبا به ثم قال له:

– لقد فحصت قضيتك، أو بالأحرى القضية التي تهتم بها، وقد تبينت أنها قصة أسيئ تناولها والدفاع عنها، ولكننا سنحاول مع ذلك نقض الحكم، وقد أعددت المذكرة التالية لهذا الغرض.

ثم تناول المحامي ورقة كبيرة، وبعد أن مر مرورا سريعا على العبارات الشكلية المعتادة في هذا الصدد، بدأ يقرأ ما يلي بأناة:

"إن هذا الحكم جاء نتيجة أخطاء ضخمة وسوء تأويل، بحيث يتعين تعديله، فقد أوقف رئيس المحكمة محامي ماسلوفا ومنعه من الاسترسال في تحليل حياة المتهمة وظروفها وأسباب ترديها في مهاوي الرذيلة، بحجة أن هذا لا علاقة له بموضوع القضية، مع أن مجلس الشيوخ قد قرر أكثر من مرة أن تحليل شخصية المتهم في القضايا الجنائية أمر عظيم الأهمية، لأنه عنصر أساسي في تقدير مدى المسئولية الجنائية.

"كما أن الرئيس قد أغفل في تلخيصه تنبيه المحلفين إلى أن من مهمتهم أن يقرروا حسن نية المتهمة في موضوع دس السم، إذا وجدوا لذلك القرار موضعا، ولو أن ذلك وقع لاعتبرت ماسلوفا بريئة من الجرم الذي أدينت بمقتضاه.

"وأخيرا ورد في قرار المحلفين تناقض فاضح، فهم قد نفوا عن المتهمة نية السرقة إطلاقا، ثم بعد هذا أثبتوا عليها دس السم للمجني عليه التاجر سملكوف، مع أن اتهامها بالقتل بغير هذه النية أمر غير مفهوم..

"وكان من واجب رئيس المحكمة في هذه الحالة أن يطبق المادتين ٨٠٨ و٨٦ من القانون الجنائي، فينبه المحلفين إلى خطئهم، ويدعوهم إلى الاجتماع من جديد لإصدار قرار آخر يعدلون به القرار الأول".

وسأله نكليودوف: "لماذا لم يفعل الرئيس هذا؟ أليس لمجلس الشيوخ أن يصحح هذا الخطأ؟"

فأجاب: "هذا يرجع إلى شخصية من سيعهد إليه في أمر القضية من أعضاء المجلسين" ثم عاد إلى تلاوة بقية المذكرة:

"فهذا القرار الذي أصدره المحلفون لا يبيح للمحكمة أن توقع على المتهمة عقوبة بهذا العنف لا محل لها إطلاقا، وبناء على ما تقدم أتشرف

بطلب نقض هذا الحكم، مستندا إلى المواد ٩٠٩ و٩١٠ و٩١٣ و٩٢٨ من القانون الجنائي، وبإحالتها إلى دائرة أخرى للحكم فيها من جديد على ضوء الاعتبارات السالفة الذكر!".

ووضع المحامي الورقة على المكتب أمامه ونظر إلى نكليودوف قائلا:

– إننا فعلنا كل ما في الوسع في هذا السبيل. ولكني أصارحك بغير مواربة أن الأمل ضعيف في كسب القضية وقبول النقض، فالمسألة معلقة على من سينظرون فيها من أعضاء مجلس الشيوخ، فإذا استطعت التأثير فيهم، فلا تحجم عن ذلك..

– أني أعرف بضعة أعضاء في مجلس الشيوخ.

– أسرع إذن، فإن الدورة توشك أن تنفض، وفي هذه الحالة ستضطر للانتظار ثلاثة أشهر أخرى... فإذا خاننا التوفيق في مجلس الشيوخ، ففي الإمكان رفع التماس إلى القيصر.

– أشكرك كثيرا على هذا المجهود الهائل... وأما الأتعاب...

– إن سكرتيري سيقدم إليك صحيفة النقض، ومعها جميع الإرشادات اللازمة، فتفضل بالمرور عليه.

– بقي سؤال واحد.. لقد منحني النائب العام ترخيصًا بالمرور في السجن العام، كي أستطيع مقابلة ماسلوفا في أي وقت. وقد قيل لي في السجن أنه يجب الحصول على ترخيص آخر من محافظ السجن إذا أرد رؤيتها في غير أوقات الزيارة الرسمية. فهل هذا التصريح ضروري حقا؟

– أعتقد هذا.. ولكن المحافظ متغيب في الوقت الحاضر، ونائبه هو الذي يقوم مقامه وهو شخص مختل، وأشك كثيرا في تمكنك من الحصول منه على شيء مما تريد.

– أليس هو ماسلينيكوف؟.. أنا أعرف حق المعرفة!

وغادر نكليودوف حجرة المحامي، ومر بسكرتيره في الحجرة الخارجية، فأعطاه صحيفة النقض، وورقة بها قيمة الأتعاب، وهي ألف روبل. وقال له:

– أن الأستاذ لم يتعود قبول مثل هذه القضية، ولكنه قبل هذه القضية إكراما لكم.

فسأله: "ومن الذي يجب أن يوقع على طلب النقض؟"

فأجاب: "المتهمة نفسها،وإذا لم تكن تعرف الكتابة، ففي الإمكان أن يوقعه الأستاذ بدلا منها".

فقال: "بل سأجعلها توقع عليه أمامي".

ثم انصرف مسرورا بهذه الفرصة التي ستتيح له رؤيتها قبل يوم الزيارة المعلوم.

***

عاد نكليودوف إلى السجن وأطلع السجان المنوب على ترخيص النائب العام له بدخول السجن. فسأله الرجل: "من الذي تريد أن تقابله؟".

ولما أجابه بأنه يريد مقابلة السجينة ماسلوفا، هز السجان رأسه وقال:

– هذا مستحيل في الوقت الحاضر، فالمدير مشغول!

وتأهب نكليودوف للخروج من السجن، ولكنه لمح المدير كما لمحه هذا في تلك اللحظة، ونادى السجان المنوب قائلا:

– فيدولوف.. احضر إلى مكتبي ماسلوفا من الزنزانة رقم ٥.

ثم التفت إلى الأمير وقال له: "تفضل بالدخول"

وصعدا سلما غير مريح إلى حجرة لها نافذة واحدة هي مكتب المدير، ولم يكن بها من الأثاث غير مائدة للكتابة وبضعة مقاعد، فجلس المدير إلى

المائدة وأخذ يعد لنفسه لفافة ضخمة من التبغ، سواها بيده، وهو يقول في تأفف:

– يا له من عمل شاق مضن للأعصاب.. إنني كلما سويت جانبا منه عاد إلى التعقد والاضطراب، ولهذا فكرت في الاستعفاء من منصبي هذا.

وقال له نكليودوف:

– ما دام هذا المنصب الذي تشغله كثير المتاعب فمن حقك أن تتركه!

فقال المدير:

– ليس لي مورد سواه وأنا رب أسرة.. ثم إن تعبي في الواقع ناجم عن تشبثي بتأدية أكبر قسط من النفع للناس، وهذا ليس سهلا، فإن الإشراف على حياة ألفين من طراز من في السجن، ليس عملا سهلا لرجل ذي ضمير، أفهم أن الكائنات البشرية التي هنا يجب أن تعامل بالرحمة. ولكن يجب كذلك ألا يرخى لها العنان كل الإرخاء!

ولم يتمكن من الاسترسال في كلامه، لأن ماسلوفا دخلت في هذه اللحظة يتبعها أحد الحراس، وكانت محمرة الوجه، فما رأت المدير حتى رشقته بنظرة معربدة، ثم التفتت إلى نكليودوف وقالت له في صوت ناعم منغم وهي تبتسم: "عم صباحا". ثم شدت على يده في قوة..

وقال لها نكليودوف وهو في دهشة من مرحها وقلة مبالاتها:

– لقد أتيت اليوم لكي أحصل على توقيعك على عريضة طلب النقض بعد أن وقع عليها المحامي، ثم نرسلها بعد ذلك إلى بطرسبرج، لينظر فيها "مجلس الشيوخ" في هذه الدورة إن أمكن،

فابتسمت ابتسامة ساخرة مستهترة أخرى وهي تقول:

– هذا أمر ميسور.. لا مانع عندي من التوقيع..

فأخرج نكليودوف من جيبه ورقة مطوية، واقترب من المكتب وهو يقول للمدير: "أتسمح؟" فنهض المدير تاركا مجلسه خلف مكتبه، وأشار إلى ماسلوفا أن تجلس مكانه قائلا لها: "هاك قلما، هل تعرفين الكتابة؟".

– كنت أعرفها فيما مضى..

وأمسكت القلم وبصعوبة وجهد، رسمت اسمها على الورقة، ثم سألت الرجلين: "أهذا كل ما هناك؟"

فقال لها نكليودوف: "لدي ما أقوله لك".

فبدا على وجهها الجد بغتة، وقالت: "إني مصغية".

فنهض المدير وغادر المكتب ليتركهما على انفراد.. أما الحارس الذي صحب ماسلوفا، فجلس على طرف النافذة، غير بعيد منهما، وكانت هذه اللحظة هي الحاسمة لدى نكليودوف، فاقترب منها حتى لا يسمعهما الحارس وقال لها:

– ليست هذه العريضة شيئا مذكورا، فسنقدم عريضة أخرى إلى أعتاب القيصر، وسنبذل كل ما في الطاقة.

فقالت: "لو أنه كان لي محام صادق لما كنت هنا الآن"

– أريد أن أتحدث إليك في أمر يهم كلينا. فهل تذكرين موضوع حديثنا في المرة السابقة؟

– في المرة السابقة؟ أي موضوع؟ فقد تحدثنا في موضوعات كثيرة جدا.

– ألم أطلب إليك أن تسامحيني؟

– هل عدنا إلى هذا مرة أخرى؟ هذا أمر لا معنى له، وخير منه أن...

فقطع كلامها قائلا: "إن نيتي معقودة على التفكير عن خطئي ومحو آثاره. لا بالكلام ولكن بالعمل.. لقد قررت الزواج منك!".

فظهر في وجهها الرعب لهذه المفاجأة، وأخذت تحملق فيه دون أن تتبينه. ثم قالت في صوت معربد: "وهل لذلك جدوى؟"

فقال: "إن فيه راحة لضميري، فإن واجبي أمام الله أن أتزوجك".

فقالت متهكمة: "أي إله هذا الذي اكتشفته الآن؟ لقد تأخرت كثيرا في الوصول إليه.. إن هذا الذي تتحدث عنه قد انتهى وقته منذ سنين. والآن...".

ولم تتم عبارتها، بيد أن رائحة الخمر فاحت من فمها، فأدرك نكليودوف حينئذ علة مرحها وقلة مبالاتها، فقال لها: "هدئي روعك".

فقالت: "إني هادئة... أم هل تظنني سكرانة؟.. ليكن!.. ولكن مع هذا أفقه ما أقول: فأنا الآن من أهل الليمان، وحرفتي الدعارة، في حين أنك أنت رجل محترم وأمير، فلا ينبغي لك أن تلوث نفسك بالزواج مني، فاذهب إلى أميرة من أميراتكم وأعرض عليها نفسك، أما أنا يا صاحبي فقد أديت لي الثمن تلك الروبلات العشرة التي أعطيتنيها في المرة الماضية!"

فأجابها في هدوء:

– مهما تكن الإهانات التي أتلقاها منك فإنها لن تؤلم فؤادي بمثل ما يؤلمني خجلي مما أجرمت في حقك.

وهنا أخذت ماسلوفا تقلده في حركاته وصوته وهي تعيد عبارته ثم قالت له: "ولكنك لم تخجل من ذلك فيما مضى. واكتفيت بأن قذفت في وجهي بالمائة روبل، وهذا كل ما فكرت فيه من ثمن!"

فقال: "هذا صحيح.. ولكن ماذا أصنع الآن؟ إنني لن أتخلى عنك، وهذا عهد قطعته على نفسي!"

فانفجرت ضاحكة ساخرة، وانتزعت يدها من يده حين أمسكها وهتف بها متوسلا، ثم قالت له في حنق وغضب:

– ابتعد.. إنني من أهل الليمان وأنت من أهل السيادة والإمارة.. ولا موضع لك في هذا المكان!.. إنك تنشد تزكية نفسك بهذا المسلك الجديد، ففيما مضى أشبعت شهوتك من جمال جسدي، والآن تريد أن تصل بواسطتي إلى نعيم الحياة الآخرة، فتستغلني وتتمتع بي في الدارين.. أنك لبغيض، فاذهب عني، ولا ترني وجهك!"

وانتفضت واقفة في عصبية ظاهرة، فاقترب منهما الحارس وصاح بها: "هل جننت؟ أتريدينها فضيحة في هذا المكان؟".

فقال له نكليودوف: "دعها إذا سمحت".

وعاد الحارس إلى مكانه من النافذة، وجلست ماسلوفا وقد غضت من بصرها وعقدت كفيها في حجرها، ووقف نكليودوف إلى جوارها لا يدري ماذا يصنع... وأخيرا سألها: "ألا تصدقينني؟"

فقالت: "إنك تريد الزواج مني؟ ولكن كلا!.. لن يكون هذا أبدا! الموت شنقا بيدي أحب إلي من هذا!"

– مهما يكن منك، فإني لن أحجم عن خدمتك.

– هذا شأنك! على أن تعلم أنني لست في حاجة إلى خدماتك على الإطلاق.. وها أنذا أكرره على سمعك بأعلى صوتي!

وجعلت تتأوه وتتوجع ثم استطردت كالمخاطبة نفسها والدمع ينهمر على خديها:

– لماذا لم أمت قبل هذا وأصبح نسيا منسيا؟!

فأثرت هذه الدموع في نكليودوف تأثيرا ظاهرا، فنظرت إليه بدهشة ثم جففت دمعها بالمنديل الذي يغطي شعرها، واقترب الحارس منها معلنا أنه آن لهما أن يفترقا فوقف نكليودوف وقال لها:

– أنت مستثارة النفس في هذه الساعة، وسأجتهد في الحضور غدا. ففكري فيما قلت لك!

فوقفت ساكتة، ثم تبعت الحارس منصرفة لا تلوي على شيء.

وما دخلت زنزانتها حتى صاحت بها العميدة "الكارا بليوفا":

– مرحى! ما أسعد حظك! إنه مغرم بك إلى حد الهوس، فلا تغفلي هذه الفرصة، لأنها فرصة العمر.. وإنه لا يستعصى على ذي المال شيء، فتشبثي به، فإنه جدير بأن يهيئ لك أسباب السعادة!

ولم تجب ماسلوفا، وألقت نفسها فوق الفراش، وحدقت في موضع من السقف، ثم لم تتحول عنه إلى أن حل المساء، فإن لقاء نكليودوف هذه المرة قد بعث جميع الآلام التي يسببها لها تذكار حياتها الأولى.

ثم اشترت من كارا بليوفا قدرا من النبيذ، وعكفت على احتسائه لتطرد الهموم المتراكمة على وجدانها، واشتركت معها صديقتاها، حتى ثملن..

أما نكليودوف فخرج من السجن مهموما، وقد زاد مسلك ماسلوفا في هذه المرة من شعوره بفداحة جرمه القديم، لأن الدرك الذي انحدرت إليه الفتاة على إثره بدا له هذه المرة موغلا في الإسفاف، على أن هذا لم يزده إلا تشبثا بإنقاذها مهما يكلفه الأمر، ولو اقتضى ذلك أن يلازمها في منفاها السحيق.. ولم يكن يستطيع التنبؤ بما سيترتب على اتصاله بها وملازمته لها، ولكنه قال لنفسه: "أنه الواجب وكفى!".

***

استيقظ نكليودوف في الصباح التالي، وقد استولى عليه الخوف من المسلك الذي اعتزمه، ولكنه مع ذلك ظل مصمما على تنفيذه، وعلى هذه النية خرج من بيته وتوجه إلى نائب محافظ السجن لكي يطلب منه تصريحا دائما برؤية ماسلوفا في السجن متى شاء. وكان نائب المحافظ "ماسلنيكوف" من زملائه القدماء في الجيش فأجابه إلى رغبته فورا.

وتوجه نكليودوف إلى مسكن المدير في بناء السجن نفسه، ففتحت له الباب خادم أدخلته إلى "صالون" صغير فيه أريكة وثيرة ومائدة فوقها مصباح. ولم يلبث المدير أن دخل الحجرة في زيه الرسمي وبوجهه المكتئب فقال:

– ماذا تريد اليوم أيضا؟

– لقد ذهبت إلى نائب المحافظ وحصلت على الترخيص المطلوب.. وأريد الآن مقابلة ماسلوفا.

– هذا أمر في الإمكان.. ولكنه غير ممكن اليوم لأنني اضطررت إلى معاقبتها بنقلها وحدها إلى زنزانة منعزلة!.. إنها في الواقع ذات طبع هادئ ومزاج رقيق، لكنها خرجت على ذلك فجأة أمس، وضبطت مع الأسف في حالة سكر تام..

وغمغم نكليودوف وقد أخذته الدهشة: "أهذا ممكن؟".

فقال المدير: "إنني أرجو الأمير ألا يعطيها نقودا مرة أخرى، وإني لعلى استعداد لأن أعطيها ما تشاء بنفسي بقدر حاجتها، فلعل المال الذي أعطيتها إياه هو الذي أغراها بالإفراط في شرب النبيذ".

وتذكر نكليودوف ما كان منها أمس، فتملكه الخوف واليأس من المستقبل.. ورانت عليه كآبة شديدة المرارة، فنهض للانصراف، وسلم على المدير في اقتضاب، وفيما هو يغادر بناء السجن وقف له في الطريق بعض

المسجونين والتمسوا منه أن يتوسط لهم لدى المسئولين، فهم عمال يكدحون للارتزاق ولهم في السجن أربعون يوما لا لذنب إلا أنهم سافروا دون الحصول على جوازات بالسفر، فوعدهم خيرا.

وفي اليوم التالي ذهب نكليودوف إلى المحامي، واستفتاه في شأن أولئك العمال السجناء، وكان بادي التأثر بحالتهم، ويبدي دهشته بهذا الوضع الخاطئ للأمور؟

فابتسم المحامي الكبير وقال: "إن النائب العام في مثل هذه الحالة يلقي التبعة على المحافظ، ولكن المحافظ يصر على أنها غلطة النائب العام!".

فقال نكليودوف: "إذن أذهب الآن إلى ماسلينيكوف نائب المحافظ، لأخاطبه في هذا الشأن".

فقال المحامي: "لن يفيدك هذا.. إن ماسلينيكوف فيما أظن ليس قريبا لك ولا صديقا. ولهذا لا أجد غضاضة في مصارحتك بأنه وغد كبير".

ولم يجبه نكليودوف، بل نهض وانصرف ليتوجه من فوره إلى نائب المحافظ.

وقال له ماسلينيكوف: "أجئت تسأل عن تلك المرأة التي ذكرت أنه حكم عليها خطأ؟"

فقال: "نعم جئت أطلب إليك نقلها إلى العمل ممرضة في المستشفى الملحق بالسجن. فقد قيل لي أن هذا أمر ميسور".

فزم نائب المحافظ شفتيه كأنه يفكر، ثم قال:

– إني أشك في إمكان هذا، ولكني سأسأل المختصين وأحيطك علما بالنتيجة.

فقال له: "إن المرضى كثيرين، فالحاجة شديدة إلى الممرضات، وعندي مسألة أخرى.. مسألة عمال معتقلين في هذا السجن عددهم مائة وثلاثون كل ذنبهم أنهم سافروا بغير جواز سفر رسمي".

وأفاض الأمير في شرح ظروف اعتقالهم، فقال نائب المحافظ: "ماذا أستطيع أن أفعل؟ هذا من اختصاص النائب العام، وعلى أحد وكلائه أن يزور السجون للنظر في ظلامات السجناء، ولكن هؤلاء السادة من رجال القضاء يقضون أوقاتهم في النزهة والتسلية".

فقال نكليودوف ممتعضا: "إذن.. أنت لا تملك شيئا لأجلهم؟"، ثم نهض للانصراف، ولما بلغ الباب التفت وقال لنائب المحافظ":

– علمت أمس أن بعض السجناء عوقبوا بالجلد. فهل هذا صحيح؟

فأجابه قائلا: "إن الأمير يشغل نفسه بما لا شأن له به... وأحسب أن دخولك السجن كلما شئت ليس من المصلحة".

وخرج نكليودوف غاضبا، وشد ما كانت دهشته حين تلقى في اليوم التالي من "ماسلينيكوف" خطابا يخبره فيه بأن مسعاه لتعيين ماسلوفا ممرضة في مستشفى السجن قد كلل بالنجاح.

الفصل الثاني عشر

الحب يقهر كل شيء

شد ما يخطئ الكثيرون إذ يقسمون الناس إلى طيبين وأشرار، وأذكياء وأغبياء.. فالواقع أن كل إنسان فيه مزيج من هذا كله، وقد يغلب عليه أحد هذه الأشياء. مثله كمثل الماء الجاري، هو هو في كل موضع، ولكنه يتخذ أشكالا شتى بحسب اختلاف مواضعه. ومن الناس من تنضج شخصيته، ومنهم من تحول الظروف دون بلوغه هذه الغاية إلى حين أو إلى آخر الدهر.

وهكذا تقلب نكليودوف في أطوار عدة من المشاعر والأحاسيس منذ تلك الجلسة الحاسمة التي اشترك فيها محلفا في قضية كاتيوشا.. وكان في المرحلة الأولى يغلب عليه الجذل والحماسة بما عقد النية على تنفيذه، ثم تطور هذا الشعور بعد مقابلته لكاتيوشا في سجنها وحل محله شعور بالتقزز والتوجس من المستقبل.

وصحيح أنه ما زال معتزما ألا يتخلى عنها، وأن يتزوجها إذا رضيت به زوجا، ولكن هذا الأمر لم يعد يثير حماسته وجذله بقدر ما صار مثار ألم ممض له..

وفي غداة زيارته لنائب محافظ السجن "ماسلينيكوف" توجه مرة أخرى إلى السجن، ورخص له في مقابلة كاتيوشا لا في المكتب، ولا في حجرة المحامين، وإنما في حجرة الانتظار المخصصة للنساء، فقد حرص المدير على الحيلولة بينه وبين رؤية دخائل ما يجرى في السجن. وقال له:

– في وسعك أن تراها، ولكني أرجو أن تذكر ما حدثتك بشأنه فيما يتعلق بالنقود، فلا تعطها منها شيئا.. أما نقلها إلى المستشفى فهو أمر ممكن، لولا أن السجينة نفسها رفضته، فهي تأبى على حد تعبيرها أن تنقل نفايات المرضى.. آه لو علمت حقيقة هؤلاء الناس أيها الأمير، إذن لما عنيت نفسك بأمرهم.

فلم يجب نكليودوف وطلب إحضار كاتيوشا، فأشار المدير إلى سجان تولى إرشاد نكليودوف إلى قاعة الانتظار المخصصة للنساء، فوجدها قد سبقته إلى هناك، فخرجت من وراء السياج واقتربت منه وقالت له بصوت رقيق فيه إثارة من الخوف:

– اغفر لي يا دمتري ايفانوفتش تلك العبارات غير اللائقة التي وجهتها إليك في المرة السابقة.

فقال لها: "بل أنا أشد حاجة إلى غفرانك"

فأجابته وقد تبدلت سحنتها وظهر فيها الخبث:

– اسمع.. ينبغي ألا تشغل نفسك بي بعد الآن!

فقال لها: "كيف؟. ما السبب؟"

فعادت ترمقه بنفس النظرة الخبيثة، ثم أجابته:

– هاك السبب إذن.. إني أريد أن تدعني وشأني، فلست أتسريح إلى ما خطر لي من أنك تظلم نفسك وتشق عليها عي سبيلي،فالموت أحب إلي من هذا.

وأحس نكليودوف أن وراء هذه العبارة حقدا شديدا وغضبا دفينا قديما، ولكن شعورا آخر، أرقى وأنبل ما لبث أن خفف من مرارته وتقززه وقنوطه، فقال لها وقد استرد حماسته وأمله في المستقبل:

– كاتيوشا.. قلت لك فيما مضى، وأقول لك الآن.. إنني راغب في الزواج منك، فإذا أبيت فإني سألازمك ملازمة الظل لصاحبه.

فقالت له: "أنت وما تشاء".

وكانت شفتاها تختلجان، ثم ساد الصمت بينهما حتى قطعه قائلا لها:

– سأذهب لقضاء بضعة أيام في الريف، ثم أتوجه بعد ذلك إلى بطرسبرج لكي أبذل مسعاي في قضيتك، أعني قضيتنا، وسيتم لنا تعديل هذا الحكم الظالم بعون الله!

فقالت: "أنه ليس ظالما إلى هذا الحد.. الواقع أني إن لم أستحق هذه العقوبة لجريمة القتل، فأنا أستحقها لذنوب كثيرة أخرى!

ولاحظ الأمير أنها كانت تبذل جهدا كبيرا لتحبس دمعها.. وساد السكون مرة أخرى، ثم قالت له فجأة:

– أما فيما يختص بالمستشفى، فإني سأذهب إليه إن كانت هذه رغبتك.. وسأكف أيضًا منذ اليوم عن احتساء النبيذ.

وبقى نكليودوف يحدق في عينيها المبتسمتين، ثم قال لها في تأثر: "هذا جميل".

وأحس أنه لا يستطيع أن يزيد على تلك العبارة شيئا لفرط تأثره، فنهض مؤثرا الانصراف.

وفي الطريق جعل يقول لنفسه وهو في نشوة: "لشد ما تغيرت" وعادت إليه مع الحماسة ثقته السابقة بأن الحب يقهر كل شيء.

***

كان قد بقي أسبوعان على الموعد الذي تعرض فيه القضية أمام مجلس الشيوخ، وكان على نكليودوف أن يكون في بطرسبورج حينذاك ليرقب تطورات القضية.. وإذا لم يفلح هذا المسعى فسيقدم للقيصر عريضة أعدها المحامي لهذا الغرض ولاسيما أنه ضعيف الأمل في مجلس الشيوخ.

وقال نكليودوف لنفسه: "إذا لم يقبل الطعن المقدم في الحكم، فالمتوقع أن ترحل ماسلوفا إلى سيبيريا في أوائل شهر يونيه مع القافلة الأولى المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة هناك. وما دمت قد عقدت النية على تعقبها والرحيل معها إلى سيبيريا، فيجب أن أبت قبل ذلك في أمر الضياع".

ورحل في اليوم التالي إلى ضيعة كوزمنسكوي، وهي أوسع ضياعه وأكثرها غلة، ومنها درج طفلا وصبيا حتى بلغ مبلغ الشباب. وهو لذلك يعرف فلاحيها معرفة وثيقة، ويعرف أنهم على درجة عظيمة من البساطة ويخضعون له خضوع العبد لمولاه!

لقد تنازل لفلاحيه فيما مضى عما ورثه عن أبيه، ولم يمض في هذا السبيل إلى الغاية التي ارتضاها، لأنه انغمس في حياة الترف التي تحياها طبقته، فكثرت نفقاته حتى زادت على عشرين ألف روبل في السنة، ولم يجد بدا من الانصراف عن ذلك المبدأ الذي أعجب لأجله بسبنسر!

وحينما ماتت أمه وورث عنها هذه الضياع الواسعة، صار يتسلم بنفسه غلة الضياع.. واستمر كذلك بضعة أشهر. ثم لقي ماسلوفا في المحكمة فعاد إلى مبادئه فجأة وقرر أن يعدل عن النظام القديم في زراعة الأرض لحسابه الخاص، وأن يوزعها قطعا صغيرة على فلاحيه بإيجار زهيد.

إن الفلاح فيما مضى كان يباع مع الأرض ولا يحق له أن ينفصل عنها، فلما بطل الرق قانونا لم تتغير حالته تغيرا مذكورا، فهو لا يزال مقيدا إلى الأرض التي يزرعها أجيرا أو مستأجرا، ولا يجد القوت إلا عن هذا الطريق.

ووصل نكليودوف إلى محطة "كوزمينسكوي" بعد الظهر دون إخطار سابق لمفتش الدائرة.. وهناك استأجر عربة لتوصيله إلى الضيعة وأخذ يجاذب الحوذي الساذج وأطراف الحديث، ولم يكن هذا يعرف شخصه فلما سأله عن مفتش الدائرة لم يتحفظ في الجواب وقال:

– إن "المافي" داهية شديد الذكاء، وقد اشترى لنفسه عربة وزوجا من الجياد، إذا خرج فيها مع امرأته بدا للناس في هالة من الأبهة. ولا ريب أنه أثرى ثراء محرما من الإشراف على هذه الضيعة. وماذا يخشى؟ أليس هو السيد المطاع؟

وكان لهذا الكلام وقع سيء في نفس نكليودوف. ولكنه ما وصل إلى البيت حتى نسي ما سمع وانصرف إلى ترتيب شئونه، فراجع الدفاتر وتحدث في مشروعه مع المفتش الذي نظر إلى الأمر نظرة استغلالية محضة، فأخذ يحاول إقناع الأمير بضرر إعطاء الفلاحين أرضا يزرعونها لحسابهم بالإيجار، وبأن فكرته غير ممكنة التطبيق لأن الفلاحين سيعجزون عن استغلال الأرض

بوسائلهم الناقصة، ولتواكلهم وتكاسلهم. وبذلك يخسر الأمير دون أن يربحوا شيئا، ولا يمضي قليل حتى تتلف الأرض من الإهمال..

على أن نكليودوف ضرب هذا كله عرض الحائط، وأمر المفتش بدعوة جميع الفلاحين إلى الاجتماع به ليفضي إليهم بالنظام الجديد ويتفاهم معهم على قيمة الإيجار الذي يمكنهم أن يؤدوه!

وفي اليوم التالي اجتمع الفلاحون واستقبلوا الأمير وقوفا حاسري الرؤوس. وأخذته رهبة الموقف فبقى صامتا بعض الوقت لا يستطيع الكلام، وأخيرا قال لهم:

– لقد قررت أن أوزع عليكم أرضي هذه وجئت لأتفاهم معكم على ذلك.

ولم يجب أحد منهم بأي كلمة، وكأنهم لم يفقهوا قوله، أو لم يصدقوا أسماعهم. وأخيرا قال فلاح من الموجيك في أوسط العمر: "ما المقصود بتوزيع الأرض؟".

فقال الأمير: "أعطيكم إياها بإيجار زهيد".

وهنا قال فلاح عجوز: "هل هو إيجار يمكن دفعه؟".

فقال الأمير: "نعم، لأن حاجتكم ستكون مقدمة على أداء الإيجار، فأنتم لا معاش لكم إلا هذه الأرض التي تزرعونها!".

ومضى الحديث على هذا النحو، والفلاحون بين قليلين راضين مغتبطين وكثيرين ما زال الشك يساورهم في صدق ما يسمعون، فهم لم يتعودوا أن يقدم لهم أحد من الملاك مثل هذا الذي يعرضه الأمير.

وأخيرًا وجه نكليودوف المناقشة إلى الهدف الأساسي وهو قيمة الإيجار ومواعيد الأقساط. فقال أحد الفلاحين:

– أنت صاحب الأرض، فلك أن تحتكم في إيجارها..

فاقترح نكليودوف أجرا زهيدا جدا حتى لقد تصايح القوم متعجبين..

وسوى الأمر على هذا الأساس، ولكن نكليودوف بقي يشعر بشيء من الكآبة، فقد خيل إليه أن الفلاحين لا يزال يخامرهم الطمع في أن يخفض الإيجار إلى أقل من ثلث إيجار المثل.

وفي اليوم التالي تم التوقيع على العقود، وودع نكليودوف فلاحيه وتوجه في عربة المفتش إلى المحطة حيث أخذ طريقه إلى ضيعته الأخرى التي ورثها عن عمتيه، للتفاهم مع فلاحيها أيضا. وكان يحدث نفسه:

– كيف يغفل الناس عن أمر هو غاية في الوضوح والجلاء؟ إن هذا الشعب صار أمره إلى الانحلال، وأنكى من هذا أنه استمرأ الانحلال، فلم يعد يشكو أو يتململ من الأشغال الشاقة التي تفرض على النساء، أو ارتفاع نسبة وفيات الأطفال، أو نقص الغذاء!

وكان كلما قلب الأمر على وجوهه المختلفة ازداد يقينا بأن غلة الأرض أحق بها أولئك الذين يزرعونها ويعيشون بها.. وتذكر قول هنري جورج: "أن الأرض شيء غير قابل للتملك، شأنها في ذلك شأن الماء والهواء ونور الشمس".

وعجب من نفسه كيف نسي أو تناسى هذه المبادئ التي اعتنقها في شبابه، وأدرك سر شعوره بالضيق على أثر الاتفاق الذي عقده مع فلاحيه في

ضيعة كوزمنسكوي.. وبدأت تخامره فكرة جديدة، هي أن يبيع أرضه كلها للفلاحين في مقابل الإيجار الزهيد الذي يقدمونه له بضع سنين، على أن يتعاونوا فيما بينهم على رعاية المرضى والأرامل والعجزة من الشيوخ والأطفال.

وعلى هذا الأساس الجديد دعا فلاحيه في تلك الضيعة على أثر وصوله إليها، ليتفاهم معهم فما سمعوا ذلك منه حتى ضجوا بهتافات الاستحسان، وإن عجزوا عن فهم مراده تماما، ليقينهم بأن كل إنسان إنما يهدف إلى مصلحته الخاصة، وليس بمعقول أن يؤثر عليها مصلحة سواه!

وفي اليوم التالي اختار وكيله في الصيغة سبعة من كبار فلاحيها، فبين لهم نكليودوف أهدافه بتفصيل وإسهاب، وشرح لهم نظريته في الملكية الزراعية قائلا:

– إن الأرض في عقيدتي شيء لا يباع ولا يشرى، لأننا إذا جعلناها سلعة تباع في الأسواق، تمكن من حيازتها كلها أكثر الناس مالا وحرم منها الآخرون!

فقال شيخ من الفلاحين السبعة: "هذا حق".

وواصل نكليودوف كلامه فقال:

– من أجل ذلك عزمت على النزول على ملكية هذه الأرض، وقد جئت إليكم لهذا الغرض. وليس ينقصني للخلاص منها إلا أن نتفق على وسيلة التنازل لكم عنها.

فقال أحد الفلاحين: "إذا كان هذا عزمك حقا، فالأمر بسيط جدا.. أعطها للفلاحين".

فاضطربت نفس نكليودوف حين سمع هذه العبارة، لما أحس وراءها من سوء المظنة وفقدان الثقة، ولكنه استرسل قائلا:

– لن يكون في الناس من هو أسعد مني إذا أتيح لي أن أعطيها الفلاحين. ولكن المشكلة في أيهم نعطيها له.

فقال فلاح كان فيما مضى جنديا في الجيش: "هذه هي الحقيقة"

ومضى هو فقال: "لو أنكم كنتم في مكاني؟ فماذا تصنعون لتوزيع الأرض؟"

فقال واحد منهم: "كنا نوزعها سواسية بيننا، لا يزيد نصيب واحد منا على نصيب غيره شيئا، وبهذا نتجنب التحيف والغبن!"

فقال نكليودوف: "هذا غير ممكن، فإننا إذا وزعنا الأرض بالتساوي على الجميع، فإن الكسالى منهم يبيعون نصيبهم إلى الآخرين، وبهذا تعود الأرض كرة أخرى إلى الأغنياء. وهناك اعتبار آخر هو تفاوت النسل بين أسرة وأخرى، فإن الأسرة التي يزيد عددها ستقل ثروتها النسبية من الأرض وينقسم نصيبها قطعا ضئيلة لا فائدة منها لأصحابها، فيحملهم ذلك على بيعا لأصحاب الثراء.

فصاح صائح من الفلاحين: "هذا صحيح. فالحل الوحيد أن نزرع الأرض على الشيوع، متضامنين في العمل متقاسمين في الغلة، أي من يعمل يأخذ بمقدار عمله، وأما الذين لا يعملون فلا ينالون شيئا. وهذا هو العدل"

فقال نكليودوف: "إن هذا يقتضي أن يكون لدى الجميع ما يحتاجون إليه من المحاريث ودواب الحقل وما إليها من أدوات الزراعة، كما يقتضي أن

يكون الجميع على اتفاق تام حتى لا يضطرب العمل. ثم إن التوزيع نفسه مسألة تكتنفها المشاكل والصعوبات. لأن الأرض فيها الخصبة وفيها المجدبة، وليس من العدل أن يستأثر بالأولى قوم دون آخرين، فالمسألة ليست من البساطة كما تتوهمون. وقد سبقنا إلى معالجة هذه المشاكل بعض الأجانب مثل هنري جورج الأمريكي، ولعل نظريته أقرب إلى العقل ومقتضيات العمل، فهو يرى أن الأرض ليست ملكا لأحد، وإنما هي أرض الله فيها حقوق متساوية، أي أن على أصحاب الأرض الجيدة أن يعطوا من فائض غلتها من يعملون في الأرض غير الجيدة، أو ينزلون عن قيمته لخزانة الدولة كي تنفق منه في استصلاح الأرض المجدبة".

فصاح واحد من الفلاحين:

– هذا هو العدل، فمن يملك أحسن الأرض يجب أن يكون نصيبه من التكاليف العامة أكبر!

فقال فلاح آخر في شيء من التشكك والحذر: "المهم أن يكون ثمن الأرض في حدود المعقول".

فأجابه نكليودوف: " ثمن الأرض يجب أن يكون وسطا، لأن ارتفاعه يوقع الغبن الذي نريد تلافيه، ولا يتيسر أداؤه. وإذا كان أقل مما ينبغي فإن الأرض يسهل احتكارها".

وهنا صاح الفلاحون موافقين، وقال نكليودوف وهو يودعهم:

– أرجو أن تبسطوا المسألة لرفاقكم، ولست أستعجلكم، ومتى اتفقتم على رأي فتعالوا جميعا لنتعاقد.

***

وبعد ثلاثة أيام عادوا إليه يحملون موافقة إجماعية على مشروعه، ولم يخبروه بالمجهودات التي بذلوها للتغلب على اعتراضات امرأة عجوز جعلت تكرر على أسماع الفلاحين أن الأمير إنما يهدف بهذا العمل إلى التكفير عن خطايا جسيمة ارتكبها في صدر شبابه!

وفي يوم مقامه الأخير في هذه الضيعة تفرغ لفحص الأوراق القديمة، فعثر في بعض الأدراج على خطابات لعمتيه، ووجد بينها صورة شمسية، تبدو فيها مجموعة من الأشخاص بينهم هو حين كان تلميذا، وعمتاه وكاتيوشا، فأخذ هذه الصورة فيما أخذ معه من أشياء قليلة من متخلفات عمتيه.

الفصل الثالث عشر
من حال إلى حال!

عاد نكليودوف إلى المدينة وهو يشعر بشيء من الضيق، واستقر رأيه على مغادرة مسكنه إلى الفندق في اليوم التالي، تاركا للوصيفة العجوز ترتيب الأشياء على الوجه الذي تراه إلى أن تصل شقيقته فتتولى البت في الأمر، واختار فندقا قريبا من السجن، فاتخذ لنفسه فيه حجرتين، ثم توجه إلى السجن وهو يسأل نفسه كيف حال كاتيوشا وأي حالة نفسية قد اعترتها منذ فارقها، وعلم من الحارس الذي فتح له الباب أنها تعمل ممرضة في مستشفى السجن، فطلب مقابلتها هناك. واقتيد إلى عنبر الأطفال الذي كانت موكلة به، فلما بلغه سأله طبيب الشاب عن الغرض من حضوره.

فقال له: "هنا سجينة اسمها ماسلوفا عينت ممرضة منذ أيام وأنا أريد مقابلتها لأني ذاهب إلى بطرسبرج لتتبع الطعن الذي قدم في قضيتها لمجلس الشيوخ. وأريد قبل أن أسافر أن أضع هذا بين يديها". وأخرج من جيبه ظرفا أراه للطبيب قائلا: "أن فيه صورة شمسية قديمة".

فسمح له الطبيب بمقابلة ماسلوفا وأرسل في طلبها، فلما أنس نكليودوف إلى الطبيب سأله عن رأيه في عمل ماسلوفا، فأجابه هذا:

– ليس عملها رديئًا جدا، ولاسيما إذا راعينا المهنة التي كانت تزاولها قبل أن تدخل السجن.

وفي هذه اللحظة دخلت ماسلوفا وعليها ثوب أبيض مما يرتدي للتمريض، وما لمحت الأمير حتى تضرج وجهها ووقفت مترددة وقد غضت من بصرها، ولكنها لم تلبث أن تغلبت على ترددها وأسرعت نحوه فشدت على يده وقد احمر وجهها مرة أخرى، ولم يكن نكليودوف قد رآها منذ ذلك اللقاء الذي أعربت له فيه عن أسفها لما بدر منها من حدة في التعبير، وكان يأمل أن يجدها في هذه المرة على ما كانت عليه في تلك المرة من رقة. ولكنه وجدها امرأة أخرى، فقد تغير تعبير وجهها، وبدت أشد حذرا وتحفظا، بل ربما كانت أقرب إلى الجفاء.

وكرر على سمعها ما قاله للطبيب من قبل عن رحلته التي أزمعها إلى بطرسبورج. ثم قدم إليها الصورة الشمسية. وهو يقول لها:

– هذه صورة قديمة وجدتها في بيت عمتي، أحضرتها إليك لأنني قدرت أنك قد تحبين الاحتفاظ بها.

فرفعت إليه عينيها وكأنها تستفسره السر الكامن وراء هذه الهدية، ثم تناولت المظروف دون أن تنطق بكلمة وأخفته في ثوبها الأبيض.

وسألها بعد ذلك: "أأنت مرتاحة إلى العمل هنا؟". فأجابته باقتضاب: "لا بأس!".

فسألها: "هل العمل شاق؟". فقالت: "كلا.. وإنما هي قلة الألفة وتهيب الجديد".

فقال لها: "إني لسعيد لهذا التغير الذي طرأ على حالتك، فلا شك أنك هنا أحسن كثيرا مما كنت هناك!".

وسألته كالجازعة: "هناك أين؟!".

فقال: "في السجن قبل تعيينك هنا".

وبدا لها أنها لم تقتنع، وتحقق هذا حين عادت تسأله: "أحسن من أي وجهة؟"

وأجابها: "أعني أنك هنا في وسط صحبة أحسن".

فقالت: "هناك أيضا كانت قلوب طيبة"

ورأى أن يغير مجرى الحديث فقال: "سأستقل القطار الليلة إلى بطرسبورج، لأن موعد نظر قضيتك قد أزف، وأرجو أن ينقض الحكم الذي صدر ضدك".

فقالت: "الآن يستوي عندي أن ينقض الحكم وألا ينقض".

فسألها متعجبا: "ولماذا الآن؟"

فأشاحت عنه بعينيها ولم تزد على أن قالت: "هكذا..". فأدرك أنها تريد أن تتحقق هل لا يزال على عزمه السابق أم أن رفضها الزواج منه قد انتهى به إلى نفض يده منها يائسا، فقال لها:

– ليس لي علم بالسبب الذي يجعل الأمر عندك على حد سواء، أما أنا فأستطيع أن أقول أن نتيجة الطعن لا تهمني الآن كثيرا، فسواء أكانت حكما بالبراءة أم كانت تأييدا للحكم– فإني عند قراري السابق الذي حدثتك فيه من قبل.

فرفعت إليه بصرها وقد أشرق وجهها بغبطة طاغية، بيد أنها استطاعت أن تملك زمام أعصابها وأن تقول له شيئا يخالف ما نطق به وجهها وعيناها.. ولاحظ أنها كانت تجتهد في إخفاء ابتسامتها بمشقة.، وفي هذه اللحظة ارتفع في العنبر صوت طفل يتوجع، فقالت له بوجل:

– أعتقد أنني مطلوبة الآن لأرى ما خطب هذا الطفل؟

فقال: "إلى اللقاء إذن".

وبدا عليها أنها لم تر يده الممدودة إليها حين ابتعدت مسرعة. فوقف في مكانه هنيهة وهو يحدث نفسه حائرا:

– ما الذي يدور في نفسها؟ أتراها تمتحن إخلاصي؟ أم هي لا تستطيع أن تغفر لي ذلك الجرم القديم؟.. أهي عاجزة عن التعبير عن شعورها الحقيقي لجهلها به، أم هي تكتم ذلك الشعور عمدا؟

والحق أنه كان يعرف عنها معرفة اليقين أن تغيرا طرأ عليها، وأن هذا التغير لا يزال يأخذ مجراه في عروقها. أما هي فما خلت إلى نفسها حتى فتحت الظرف وألقت نظرة سريعة على الصورة الشمسية التي فيه دون أن تخرجها منه. وكأنما راق لها تأمل ما في الصورة من معالم الوجوه وملابس أصحابها، والشرفة العتيقة التي وقفوا فيها للتصوير، وأعجبها على الخصوص وجهها هي بصباحته وملاحته وتاج الشعر الأثيث الذي كان يعلوه.. وبلغ من استغراقها في هذه الذكريات أنها لم تتنبه إلى دخول زميلتها، حتى سألتها تلك الزميلة البدينة وهي تنحني فوق الصورة:

– ما هذا؟.. أهو الذي أعطاك إياها؟ وهل هذه أنت؟

– طبعا هذه أنا.

– وهذا؟ أليس هو؟. وهل هذه أمه؟

– كلا بل عمته.

– ألم تعرفيني في الصورة لأول وهلة؟

– كلا!.. فلا الوجه وجهك ولا القامة قامتك. ولا عجب، فما أظن الصورة إلا قد رسمت قبل عشر سنين.

– بل قولي منذ قرن من الزمان. فقد مضى عليها عمر كامل تبدلنا فيه حياة بعد حياة.

واعترتها كآبة مفاجئة، فقالت بامتعاض:

– فلنطو هذا الحديث ولا نجر له ذكرا بعد الآن.

ونهضت من مكانها فألقت بالصورة من درجِ المائدة، ثم ولت خارجة من الحجرة وهي لا تقوى على حبس دمعها، فإنها ما نظرت في الصورة واستعادت بذاكرتها تلك الفتاة التي كانتها في ذلك الوقت، وما كانت فيه من سعادة وأمن، وما سنح لها الآن من فرص السعادة المستقبلة، حتى شرح لذلك صدرها، بيد أن كلمات زميلتها أدخلت على نفسها الحزن لأنها أشعرتها بالهوة بالهائلة التي تفصل بين ماضيها وحاضرها، فتمثلت لها فظاعة حياة الفسق والدنس التي عاشتها في السنوات الأخيرة وكأنها تتبين تلك الحقيقة لأول مرة، فاستسلمت للبكاء.

***

كان نكليودوف قد تجنب كل نشاط اجتماعي في الفترة الأخيرة لما اعتراه من التقزز من حياة البطالة والفراغ والأنانية التي يعيشها أهل طبقته العالية. ومن الطبيعي أن يقطع صلته بهذه البيئة على إثر ذلك التغير الذي طرأ عليه، بيد أن الصلات الاجتماعية لا تبتر بمثل هذه السهولة والبساطة، يضاف إلى هذا أن إنقاذ ماسلوفا من الظلم الفادح الذي وقع عليها يقتضي الاستعانة بأصحاب النفوذ، من أقربائه وأصهاره وغيرهم من أهل تلك الطبقة!

ورحل نكليودوف إلى بطرسبرج ونزل عند خالته الكونتيس تشارسكي، وهي زوجة وزير سابق. فوجد نفسه عندها في وسط البيئة الارستقراطية في عاصمة روسيا، ولم تكن خالته لتغتفر له أن ينزل في بطرسبورج في غير دارها. ثم هو مطالب بإرضائها والتودد إليها حتى يكسبها إلى صفه ويستفيد من نفوذها في إنجاح مسعاه لإنقاذ ماسلوفا!

وابتدرته خالته قائلة وهي تقدم له قدح القهوة:

– بلغنا عنك شيء كثير عجبنا له.. فقد قيل أنك وجهت نفسك لأعمال البر ومساعدة المنبوذين المجرمين، فأنت لا ترى الآن في الأندية، لأنك تؤثر عليها ارتياد السجون والاختلاط بأهلها.. على أن هذا ليس فيه ما يعاب، ولكن الذي أهمنا حقا أن وراء هذا النشاط الغريب قصة حب أو قصة زواج أعجب وأغرب.

وروى لها نكليودوف قصته مع ماسلوفا بالتفصيل. وكانت الكونتس خالته في الستين من عمرها لكنها قوية البنية ذات صحة جيدة، تميل إلى المرح وحب الحياة بما فيها من أوجه النشاط بالعمل والكلام على السواء. وكان نكليودوف يستريح إليها منذ تعود في طفولته أن يركن إلى رأيها مطمئنا

إلى مرحها وسعة أفقها، ولهذا صارحها بأنه مصمم على مساعدة ماسلوفا لأنها أدينت ظلما، ولأن خطأه القديم هو الذي قادها إلى ذلك المصير الأليم.

ونظرت إليه خالته في دهشة بالغة ثم قالت له: "إذن فقد كان حقا ما سمعناه من أنك تريد الزواج من سجينتك المظلومة هذه؟".

فقال: "نعم، ولكنها رفضت!"

فقالت: "أراها أكثر فطنة منك، لكن أكنت ستتزوجها حقا؟ أم هي نزوة ساعة ثم أعقبها الندم؟".

فقال: "كنت سأتزوجها حقا".

فحدجته بنظرة فاحصة وقالت: "تتزوجها برغم ماضيها الحافل؟!"

فقال: "بل من أجل ماضيها الحافل هذا، لأني أنا علته الأولى".

فقالت: "يا عزيزي أنت ساذج جدا.. ولكن عندي اقتراح.. لقد أنشأت "الين" ملجأ للتائبات، وهو ملجأ نموذجي، ففي الإمكان أن تقبل فيه تلك المسكينة".

فقال لها: "هذا غير ممكن لأن الحكم بالأشغال الشاقة لا يزال قائما ضدها، وقد حضرت خصيصا لأسعى في سبيل قبول الطعن المقدم لمجلس الشيوخ في هذا الحكم".

قالت: "أفي مجلس الشيوخ تقول؟ سأخاطب زوجي إذن في هذا الأمر لأنه ذو صلة بأكثر الأعضاء هناك، ولكن عليك أن تشرح له المسألة بنفسك، لأنه يزعم دائما أنه لا يفقه عني شيئا مهما أوضحه له.. إن كل إنسان لديه استعداد لأن يفهم عني ما عدا زوجي.

وفي هذه اللحظة دخل الكونت تشارسكي، وهو رجل طويل القامة عريض الكتفين، يرتدي بذلة الجنرال، فما رآه حتى قبله وصاح به:

– أهلا بك يا ديمتري.. متى جئت؟

فصاحت زوجته: "دعك منه، فقد فسدت حاله وصار يعتنق آراء غريبة! فهو يريدني على أن أتطوع لغسل ملابس الفقراء وأن أكتفي في غذائي بالبطاطس والعياذ بالله!.. أن ابن أختي قد أعطى عقله أجازة فيما يظهر، ولكني مع هذا أحبه وأوصيك بأن تولي رغباته اهتمامك!".

وكان الكونت وزيرا سابقا، له معتقدات جامدة غير قابلة للتطور، وأهم هذه المعتقدات أن الله كما اختص الطير بالتحليق في الهواء فطرة وغريزة، كذلك اختصه هو بتغذية بدنه بالطعام الدسم الذي يتفنن فيه طباخون تدفع لهم أكبر المرتبات، وبأن يكسو جسمه بأغلى الثياب وأكثرها رفاهة، ويحمله على أحسن الجياد وأسرعها، وكان يعتقد إلى ذلك كله أن لزوم درجات المجد وتحلية صدره بالنياشين والأوسمة رهن بما يبتزه من خزانة الدولة. وقد عاش الرجل في خدمة الدولة أربعين عاما على أساس هذه المعتقدات، فلم تزدها التجربة إلا رسوخا في نفسه بسبب ما لقيه من نجاح مطرد أو صلة إلى كرسي الوزارة، ولا يزال في الأمل فسحة وراء هذا أيضا. أما العمل فذلك شيء لم يخطر له قط ببال، وهو لا يرى ما ينبغي أن يراعى في الخدمة العامة إلا إتباع التعليمات واللوائح، أو الاحتيال عليها بمعنى أصح..

واستمع الكونت لنكليودوف كما كان يستمع وهو وزير إلى تقارير مدير مكتبه. ثم قال له: "سأعطيك خطابين: أحدهما للشيخ (ولني)... وهو من

الشيوخ المختصين بنظر النقض. والآخر لشيخ من أصحاب النفوذ في لجنة الالتماسات".

وحمل نكليودوف الخطابين، وانطلق إلى مجلس الشيوخ، حيث طلب مقابلة مدير قسم النقض، فأدخلوه أولا في مكتب مكتظ بالموظفين من رجال القانون الملحقين بالإدارة التشريعية. وشرح القضية لواحد منهم، فأفهمه أن ملتمس ماسلوفا ورد للمجلس، وحول إلى الشيخ المحترم (ولفكما قال له: أن المجلس سيجتمع في الأسبوع نفسه، ولكن يستبعد أن ينظر قضية ماسلوفا في هذا الاجتماع، اللهم إلا إذا سعيت إلى نظرها فإن ذلك يكون أمرا قريب الاحتمال.

وغادر نكليودوف هذا المكتب إلى لجنة الالتماسات، وطلب مقابلة البارون "فوربيف"، فقال له الحاجب في صلف: "إن البارون لا يستقبل أحدا لأن اليوم ليس من أيام مقابلاته، فهو اليوم مشغول مع القيصر، وغدا سيكون مشغولا برفع تقرير هام".

فترك له خطاب التوصية الذي أعطاه إياه زوج خالته، وانصرف إلى مكتب الشيخ المحترم فيلاديمير فاسيليفتش ولف".

وكان هذا الشيخ المحترم قد فرغ لتوه من طعامه، فاستقبل نكليودوف وفي فمه سيجار ضخم، وقد بدا ذلك الاعتزاز بنفسه الذي يعزى إليه ارتقاؤه السريع ونفوذه العظيم وحظه الباهر، وبه استطاع أن يحصل من طريق الزواج على إيراد سنوي قدره ثمانية عشر ألف روبل، كما استطاع أن يحصل على عضوية مجلس الشيوخ!

والواقع أنه كان لا يقبل أن تهدى إليه أية هدية على سبيل الرشوة، لكنه كان لا يحجم عن تنفيذ كل ما يطلبه السادة الكبار، ولو كان في ذلك تشريد مئات أو القضاء على حياتهم، لا لشيء سوى أنهم أحرار العقيدة محبون لوطنهم.. ثم هو إلى ذلك لم يكن يرى أية غضاضة في أن يخون زوجته التي حصل بزواجه منها على ذلك الإيراد الهائل بسبب ما يعلمه من تعلقها به!

وقد استقبل الشيخ المحترم الأمير نكليودوف بابتسامة تهكمية، هي كل عدته في إظهار امتيازه على خلق الله، وقرأ الخطاب الذي حمله إليه من زوج خالته، ثم قال له:

– أنه ليسرني أن أعرفك، ويسرني في الوقت نفسه أن أرضي الكونت ما وسعني ذلك.

فقال الأمير: "كل ما أرجوه أن يعجل النظر في الطعن المقدم للمجلس، حتى إذا رفض الطعن تسنى إلحاق المحكوم عليها بأول قافلة ترحل إلى سيبيريا!".

فسأله: "ما اسم هذه المتهمة؟".

ولما أدلى إليه باسمها، أخذ الشيخ المحترم يقلب بعض الأوراق المتراكمة أمامه ثم أخرج منها ورقة وقال:

– هذه عريضتها.. وسأخاطب في شأنها زملائي، حتى ينظروا فيها في جلسة الأربعاء القادم.

– قد تكون أسباب النقض الشكلية غير كافية، ولكن أملي أن يكون الموضوع نفسه، وما في طواياه من ظلم صارخ، مبررا للنظر في الطعن بعين العدالة!

– سنجتهد في هذا.. وإن كنت أصارحك منذ الآن بأن مجلس الشيوخ لا ينظر إلا في طريقة تطبيق القانون، أما موضوع القضية نفسه فلا ينظر فيه إطلاقا.

– ولكننا في هذه القضية حيال حالة استثنائية.

– طبعا.. طبعا. ففي كل حالة جانب استثنائي، سنبذل جهدنا على كل حال.

فنهض نكليودوف، وصحبه ولف إلى الباب. وهناك قال له:

– تعال للغداء معي يوم الأربعاء، وحينئذ سأطلعك على نتيجة الطعن.

ورجع نكليودوف بعد ذلك إلى بيت خالته، فوجد الغداء على المائة، وكان الحديث يجرى محتدما بين خالته وزوجها وابنها، حول مبارزة وقعت بين ضابطين في الجيش على إثر تجريح أحدهما لفرقة الآخر! فقد رأت الخالة في ذلك العمل خفة تعاب لأن القتل في ساعة الغضب أو السكر ليس مما يستحب.. أما زوجها فكان يرى ذلك أمرا مشروعا في سبيل الدفاع عن كرامة الفرقة.. وكذلك كان رأي ابنه.

وحمل نكليودوف على المبارزة حملة شعواء، وقارن بين الشهرة التي يحصل المبارز القاتل عليها، وبين الحكم الرادع الذي يوقع على قاتل عادي استثيرت أعصابه أثناء لعب الميسر أو بمعاقرة الشراب، مع أن الجريمة

واحدة، والدافع النفسي واحد، ولكنه شعر بأن أسرة خالته كلها امتعضت لهذه الآراء، فانقبض وقام عن المائدة، وما لبث أن لاذ بغرفته ليفكر ويحدث نفسه بما يشاء!

***

لم يقدر للمساعي التي بذلها نكليودوف أن تثمر ثمرتها المرجوة، فقد رفض مجلس الشيوخ الطعن المقدم في قضية ماسلوفا، وأبدى الشيخ المحترم "ولف" أسفه الشديد لنكليودوف، فقد كانت أسباب الطعن غير كافية لقبوله من حيث المبدأ.

وخرج نكليودوف من مجلسي الشيوخ محزونا، لأن رفض الطعن قد سجل على جبين ماسلوفا "إكليل الشهادة"، وسجل عليه هو أنه دفع بها إلى ذلك الاستشهاد، فدمها على رأسه، ولا مهرب له من ذلك أمام نفسه، فلا مفر له عن ربط حياته بحياتها على سبيل التعويض والتكفير..

وكان نكليودوف قد صار بعد هذه الأيام التي قضاها في العاصمة متداعي النفس محطم الأعصاب، وأصبح ينظر إلى مشروعاته التي اختمرت في ذهنه في موسكو عن حياته المستقبلة وكأنها حلم من أحلام الصبا الطائش!

وعلى هذه الحيرة، التي هي شر من الاستقرار على خطأ أو وهم، أوى إلى فراشه. ولكن النوم جافاه، وأخذ يسائل نفسه:

– هل من الخير حقا أن أذهب إلى سيبيريا؟.. وهل من الخير حقا أن أحرم نفسي من ثروتي الموروثة؟ وهل هناك فائدة من التطوع لحياة الفقر؟

ولم يجد عند نفسه جوابا لهذا كله، أو هو لم يجد له جوابا شافيا. فقد اختلط في ذهنه كل شيء في تلك الليلة الصافية من ليالي بطرسبورج!

واستمرت هذه الوساوس تناوشه هزيعا طويلا من الليل، دون أن يستقر على قرار يستريح إليه، حتى ثقل عليه الأمر، فنام نوما ثقيلا تقطعه الأحلام المزعجة، كذلك النعاس الذي يعانيه المخمورون بعد ليلة صاخبة في الندى...

ولما استيقظ في اليوم التالي كان أول ما شعر به أنه لم يحسن تقليب الأمر في ليلته الفائتة، وشرع يستعيد أفكاره ويرتبها من جديد، وتبين له أن السوء والأنانية كانا يسيطران على معظمها، وأن هذا كان السبب الرئيسي في اعتقاده أن زواجه من كاتيوشا وملازمته لها في سيبيريا وتنازله عن أرض للفلاحين كلها أضغاث أحلام لا يتسنى تحقيقها عمليا، أو أن تحقيقها يخرج عن طوقه!

ومضى يحدث نفسه على هذه الوتيرة:

– أجل، لقد كانت الأنانية باعث هذه الأفكار، أو هو الكسل واستمراء الاستمرار على النهج القديم من الحياة اللاهية التافهة. ومثل هذه الأفكار وإن لم تعد في العرف العام شيئا خطيرا كالأعمال السيئة، إلا أنها في واقع الأمر شر من الأعمال السيئة، لأنها تقود إليها! إن لم تقتلع من جذورها!

واستولى على نكليودوف العجب من هذه الأفكار وتسلطها على ذهنه في الليلة الفائتة، وأدرك من هذه المراجعة النفسية أن خلاصه في المستقبل متعلق بتمسكه بنواياه الجديدة، حتى لا يصاب بنكسة وجدانية يصعب عليه الخلاص منها، وأعانه على ذلك أن حياته السابقة تمثلت له كالموت أو أدهى!

وقرر في نفسه أن من الخير أن يعود في الليلة نفسها إلى موسكو، بيد أنه تذكر وعدا قطعه على نفسه بأن يذهب إلى المسرح، ليزور صديقة قديمة في مقصورتها، هي "مارييت" التي لقيها عند خالته، فلم يستطب إخلاف الوعد، وبقي ليلته تلك في بطرسبرج وذهب إلى المسرح.

وعند خروجه منه اتجه راجلا إلى بيت خالته من طريق "نفسكي" ولاحظ على الأفريز في بعض الطريق فتاة طويلة القامة تذرع الأفريز ذاهبة أيبة في ثوب محبوك على جسدها، وبهيئة تنم عن شعورها بما يثيره في الرجال الذين تقع عليها أنظارهم، فما من واحد منهم يمر بها في طريقه إلا التفت إليها ليرمقها بنظرة إعجاب واشتهاء... وإذا به هو نفسه يفعل فعلهم دون وعي منه، فقد كان وجه الفتاة يبدو مليحا برغم كل شيء.. ولم يفته أنها رمقته بنظرة وابتسامة مغريتين جعلتاه يفكر في "ماريت" التي ليست من فتيات الطريق بحال!

وجعل يسائل نفسه وهو ينتقل إلى الجانب الآخر من الطريق:

– أي فرق هناك بين هذه وتلك؟ فكلتاهما قد استقبلتني بابتسامة إغراء ونظرة إثارة. وكل ما هناك من فرق أن هذه الفتاة تقول بابتسامتها: إن كنت تريدني، فأنا رهن إشارتك، وإن كنت لا تريدني فامض لشأنك.. في حين تقول ابتسامة "مارييت" بنت الأصول العريقة: إني لست سلعة، ولكني أصدر في فتنتي وإغرائي عن الهوى النبيل والعاطفة المتسامية!

وقوى شعوره بألا فرق بينهما، وبأن الصراحة السافرة لها عذرها فصاحبتها مضطرة بحكم الحاجة وضغط الجوع.. أما الأخرى فغير مضطرة إلى الإغواء إلا بفراغ حياتها المترفة المنحلة... وليس إغراء فتاة الشارع بأشد

ضررا، لأن فتنتها ماء مبذول لمن يريد، ولأنه لقذارته يثير التقزز منه فيما بعد. أما الأخرى ففتنتها أحبولة شديدة الأسر، وسم ناقع لا تنفع فيه رقية ولا ترياق!

وانتقل به خاطره إلى ذكرى علاقته السابقة بزوجة صديقه الماريشال، فشعر بالخزي لهذا الذي تقلب فيه من الرذيلة والخيانة، وقال لنفسه:

ما أشد ظلم الإنسان وخسته.. إنه في حقيقته شيء يزدري ويعاقب.. ولكنه إذا توارى خلف المظاهر الخادعة والأسماء الجوفاء صار موضعا للتبجيل والكريم... وإن هذا والله لهو غاية الغفلة وفساد الرأي.

ووضح له أن كل ما تواضع الناس على تعظيمه ليس في حقيقة معدنه الإضلالة وضيعة شنعاء. فما يخفي الترف وجمال السمت إلا جرائم قدسها العرف ومكنت لها الألفة، حتى انقلبت مع الزمن من الإغضاء عنها إلى التعبد لها.

الفصل الرابع عشر
مجرمون وأبرياء

ما عاد نكليودوف إلى موسكو، حتى توجه من فوره إلى مستشفى السجن، لكي يطلع ماسلوفا على نتيجة الطعن، ويرتب معها أمر ترحيلها إلى سيبيريا. وكان أمله ضعيفا في قبول الملتمس الذي أعده المحامي ليرسله إلى ديوان القيصر، بعد أن توقع هي عليه، ومن عجب أنه لم يعد شديد الرغبة في أن يقبل هذا الملتمس، بل صار يشعر بأن قبوله يعد مخيبا لآماله، ذلك لأنه وطن نفسه على السفر إلى سيبيريا ليكون بجانبها في سجنها الشاق. واستعد للحياة مع المجرمين في صعيد واحد هناك في تلك الأصقاع، فتذكر قول كاتب أمريكي هاجم الرق في أمريكا: "أن السجن هو الموئل الوحيد للأحرار الشرفاء في بلد يرزح تحت نير العبودية". فالواقع أنه يرى أن روسيا ينطبق عليها هذا الوصف، ولهذا يرى السجن أولى به ما دام يعد نفسه لحياة الحرية النفسية وطهارة السريرة، وزادت هذه الفكرة تبلورا في نفسه حين دخل في ظل بناء السجن الضخم. وما طرق باب المستشفى حتى عرفه البواب، وأنبأه برحيل فتاته عن المستشفى فسأله في لهفة: "وأين هي الآن؟"

فقال البواب: "عادت إلى السجن".

فعاد يسأله "لماذا عادت إليه؟. هل طردوها؟".

فارتسمت على شفتي البواب ابتسامة زراية واستخفاف وقال:

– أنت أدرى الناس أيها الأمير بهوية هذه الفتاة، وقد تغلب عليها طبعها القديم، فأوقعت الجراح الثاني في حبائلها، وضبط معها، فطردها الطبيب الأول من المستشفى.

وما درى نكليودوف قبل هذه اللحظة أن ماسلوفا متمكنة من قلبه إلى هذا الحد، فقد أصابه النبأ الشائن بمثل الطعنة المسمومة في شغاف فؤاده، ونزل عليه نزول الملمات الجسام، بيد أن شعورا آخر احتل وجدانه مع هذا الألم الشديد، هو الشعور بالخزي والخجل من نفسه لما انخدع فيه من توسم التطور الصالح في نفس هذه المرأة بتأثير اتصاله بها، وأخذ يحدث نفسه قائلا:

– يا لله.. إذن لم تكن أنفتها من قبول تضحيتي، ولا دموعها الغزيرة ونظرات الندم والانكسار غير أوهام أو حبائل تنصبها المرأة اللعوب لاقتناص الرجال واستغلالهم.. ولكن ما العمل الآن؟ وأي وجهة أسلك بعد هذه المحنة التي أصيب بها برنامجي الجديد؟ هل أبقى على اهتمامي بها وتحميل نفسي مسئولية مصيرها، أم أتخلى عنها جزاء ما اجترحت من إثم جديد؟ على أنه شعر بأن تخليه عنها سيكون ألم له من ملازمتها، وإن ذلك سيكون عقابا له لا عقابا لها، فمضى يحدث نفسه قائلا:

– كلا. لن يغير هذا من البرنامج الذي عقدت النية على تنفيذه. وكيف يغير عمل قامت به هي، من مبدأ أخذت به نفسي؟ أعاملها بما يليق بي ويمليه على ضميري، أي بتضحية حريتي الشخصية في سبيل محو ذنبي والتكفير عنه، ولن أعدل عن اعتزامي الزواج منها، ولا عن تعهدي بملازمتها

في سجنها النائي، مهما تفعل هي بحكم ما انحدرت إليه في سالف حياتها نتيجة لجرمي.

***

وهكذا غادر المستشفى متجها بخطى ثابتة إلى بناء السجن الرئيسي وسمح له المفتش بمقابلة ماسلوفا بعد إطلاعه على الترخيص الذي يحمله، ودخلت ماسلوفا مكتب المفتش، فرفع رأسه عن الأوراق التي كان يقرؤها فوق مكتبه، وقال دون أن ينظر إلى السجينة أو الزائر:

– في وسعكما أن تتحدثا بما تشاءان.

وعاد إلى أوراقه يقرؤها. وكانت ماسلوفا قد عادت إلى ثياب السجن العادية. فلما اقتربت من نكليودوف وقرأت في أسارير وجهه الفتور والانقباض، تضرج وجهها بحمرة قانية، وغضت بصرها، فكان هذا مدعاة إلى إيقان نكليودوف من صدق ما سمعه من بواب المستشفى. وقد أراد أن يعاملها المعاملة التي أخذها بها في المرة السابقة، أي باللين والرقة، ولكنه لم يستطع أن يمد إليها يده. بل قال لها بغير مقدمات، وفي عبارة جادة جافة:

– أني أحمل إليك خبرا سيئا، فقد رفض مجلس الشيوخ الطعن.

فقالت: "كنت أعلم هذا من قبل".

واكتفى نكليودوف بأن حدق فيها متفحصا، فألفى عينيها مغرورقتين بالدمع. ولكن هذه الدموع لم تلن قلبه، بل أثارت حذره منها وسوء ظنه فيها، على أنه مع تقززه منها، لما بدر منها في المستشفى حتى طرودها منه، أحسن أن من واجبه أن يبدي لها أسفه لرفض الطعن، فقال لها:

– لا تيأسي، فإن التماس العفو من القيصر قد يقبل.

فقالت له: "ليس هذا بالذي يعنيني الآن.. لقد مررت بالمستشفى.. أليس كذلك؟"

وأومأ برأسه إشارة إلى أنه مر بالمستشفى، فواصلت كلامها قائلة: "إذن.. لابد أنهم ذكروا لك عني أشياء".

فلم يزد على أن قال: "هذا شأنك وحدك".

وكانت لهجته فاترة، كما كان جبينه مقطبا،فجرح كبريائه عاد يؤلمه، وكان ضميره يهتف به قائلا:

– أيها الرجل المرموق في المجتمع.. يا من تتمنى كل مخدرة من بنات البيوتات أن تكون لها زوجا، لقد عرضت على هذه المرأة أن تتزوجها فرفضتك، ولم تطق صبرا فتمرغت في أحضان مساعد الجراح.

ثم قال لها بصوت جاف هادئ: "لقد جئتك بالتماس العفو لكي توقعي عليه".

ثم قدم لها الالتماس، فمسحت عينيها وسألته:

– أين أضع توقيعي؟

فأشار لها إلى الموضع الذي توقع فيه، وفيما هي منحنية على المكتب ترسم إمضاءها بصعوبة ناجمة عن انقطاع صلتها بالكتابة منذ سنين، لحظ أن ظهرها يهتز بالعبرات المكتومة، فتصارع في نفسه عاملا الشفقة والحذر الممزوج بالشماتة. بيد أنه ذكر خطاياه الخاصة، فعطفه ذلك عليها، لأنه علم أن الإنسان خلق ضعيفا...

فلما انتهت من التوقيع ووقفت أمامه رافعة الرأس، قال لها في أناة:

– مهما يحدث في المستقبل، فإن قراري السابق لن يتغير منه شيء على الإطلاق. فأنا عند وعدي لك، وأينما ذهبوا بك فسأمضي أنا أيضًا، لأكون معك.

فقالت له: "أنت مخطئ في هذا ولا شك".

فقال: "كلا.. والآن يحسن أن تفكري –على سبيل الاحتياط– فيما يلزم لك في رحلتك إلى سيبيريا".

فقالت: "شكرا لك، وما أظن أني سأحتاج إلى شيء كثير".

واقترب منهما المدير، فلم يترك له نكليودوف فرصة للكلام، بل استأذن منها وانصرف وفي قلبه شعور غريب بالنشوة، لم يجربه من قبل، فهو مزاج من الأمن والاطمئنان والمحبة.. ولعل الباعث الأكبر لهذا الشعور هو إدراكه أن تصرفات ماسلوفا مهما تبلغ من الإسفاف يجب ألا تؤثر في سمو نواياه نحوها، وقد اتخذ هذا مقياسا لتحديد أفعاله وإحساساته، دون أن يكون متأثرا في ذلك بأي أثر خارجي، وذلك هو الشعور بالحرية القصوى التي تلازم الفعل الأخلاقي الراقي، وهو أيضا الشعور بعبقرية الحب الخالص، الذي يستهدف منفعة المحبوب لا منفعة المحب!

***

على أن ما بلغه عن ماسلوفا لم يكن له نصيب من الواقع.. فليس ما جرى بينها وبين الجراح الشاب إلا محاولة ذلك الجراح الإيقاع بها في حبائله ليقضي منها وطرا بوصفها جميلة شابة ساقها القدر إليه وهو يعلم مهنتها

السابقة، وقد فاجأها بمحاولته هذه بينما كانت تحضر دواء من حجرة في أقصى ممر ضيق وصارحها بما أراده منها في إصرار، لكنها دفعته بيدها دفعة عنيفة، فوقع على مائدة كان فوقها بعض القوارير فتحطمت على الأرض وأحدث دويًا كبيرًا.

وكان كبير الأطباء قريبا من ذلك المكان فرآها تولي هاربة، وسأل الجراح ما الخبر، فلم يسع هذا إلا أن يلقي عليها الاتهام، بالإهمال وسوء السلوك، وسرعان ما أمر كبير الأطباء بإعادتها إلى السجن دون أن يتحقق صحة الاتهام، بل قبل استكمال رواية الجراح.

وآلمها هذا الظلم الجديد كثيرا، لأنها كانت قد نفضت يدها من معاشرة الرجال منذ لقيت نكليودوف، بل أنها صارت لا تطيق التفكير في ذلك. فأثر فيها تأثيرا كثيرا أن تكون حياتها التي سلخت نفسها منها سببا في مطاردتها بالشك وسوء الظن بعد تطهرها وزهدها في الرجال. ولما دعيت إلى مقابلة نكليودوف، عزمت على إبراء نفسها أمامه، بيد أنها شعرت بأن ذلك غير مجد، لأنه لن يصدقها، فسكتت ولكن دموعها غلبتها حزنا على نفسها!

وزاد في حزنها أنها كانت قد أخذت نفسها بالاستقامة التامة، فحرمت نفسها من الخمر والتدخين، مع ما في ذلك من مشقة شديدة عليها، كي تكون جديرة بالرعاية التي يبذلها لها نكليودوف.. ولكن هذا كله صار لا قيمة له، وقد تبين لها أنها لن تستطيع محو الوصمة عنها، وتمكينها من النقاء الذي تصبو إليه!

وهكذا عادت إلى زنزانتها بعد مقابلة نكليودوف وهي موقنة بأنه ما زال يحسبها متمرغة في الخطايا القديمة.

***

كان من المحتمل أن ترحل ماسلوفا إلى سيبيريا مع القافلة الأولى، ولهذا بدأ نكليودوف يستعد لهذه الرحلة الشاقة التي أزمع أن يشاركها فيها. وكانت تسوية أعماله تحتاج إلى جهد كبير لكي تنتهي في الوقت المناسب، وهكذا شغل بمصائر فلاحيه وبإنهاء كل أعماله بجانب اهتمامه بقضية ماسلوفا ودراسة أحوال المساجين والنظر في أسباب جرائمهم، وما يكتنف محاكماتهم من قصور ظاهر أو خفي، وبحث الوسائل الممكنة لإنقاذهم وهدايتهم إلى الصراط المستقيم!

وهداه تفكيره في أحوال المساجين الذين خالطهم أو احتك بهم في زياراته للسجون، إلى تقسيمهم خمسة أقسام:

القسم الأول، ينضوي تحته الأبرياء الذين أدانهم القضاء خطأ.

والقسم الثاني، ينضوي تحته من يدانون لجرائم اقترفوها في ظروف شاذة، من قبيل الغيرة والغضب والسكر وما أشبه ذلك، فهم يحاسبون عن أعمال كان قضاتهم أنفسهم يقترفونها لو أنهم كانوا في مثل ظروفهم.

والقسم الثالث، ينضوي تحته من اقترفوا أعمالًا في نظرهم عادية وطبيعية جدا، ولكنها في نظر المشرعين وواضعي القوانين جرائم تستحق العقاب.

والقسم الرابع، ينضوي تحته من كل ذنبهم أنهم ارتفعوا بأنفسهم فوق مستوى العامة، وأولئك هم الملحدون، والثائرون في طلب الاستقلال والحرية، والاشتراكيون ومن إليهم ممن يطالبون بتحسين أحوال العامة وزيادة فرص الحياة الكريمة أمامهم.

أما القسم الخامس، ففيه المساكين الذين يغلب أن تكون جناية المجتمع عليهم أفدح من جنايتهم هم على المجتمع، فهم في الغالب قوم حرموا العطف والرعاية في صغرهم، وكثر عليهم ضغط الظروف، حتى امتلأت قلوبهم بالحقد. فلماذا يكون هؤلاء في غياهب السجون، ويكون سواهم طلقاء، بل يكونون في موضع القضاة لهؤلاء؟!

ومن هنا كانت حيرة نكليودوف الكبرى. وهي حيرة حاول جهده أن يجد لها حلا في الكتب القديمة والحديثة.، فاقتنى فيما اقتنى كتب "لمبروزو" و"هاروفالو" و"فري" و"ليست" و"موزلي" و"تارد"، واستوعبها جميعا، ولكنها لم تشف غليله، لأنها لم تعالج مسائل الإجرام إلا من حيث ارتباطها بقانون العقوبات. أما الزاوية التي نظر منها إلى الموضوع فلم تكن قد عولجت في أي كتاب من هذه الكتب.

ولم تزل نفسه مشتتة لا تستقر، فالمأساة التي يهتم بها قد امتزجت بوجدانه حتى أصبحت مأساته الخاصة، فهو لا يستقر على حال إزاء هذا الإشكال، ولا يزال يتساءل لماذا يقتل هؤلاء الناس ويسرقون، مع أنهم نظراء مماثلون لسواهم من الخلق في كل شيء وكل خليقة؟. وبأي حل يسمح أقوام لأنفسهم بإدانة آخرين والحكم عليهم؟

وأعجزه الجواب الشافي فيما قرأ، وفيما فكر، فتوهم أن حيرته ناجمة عن سطحية في دراسته أو تفكيره، وعزم على تقصي الموضوع بالتجربة العملية والممارسة الحياتية.

***

حدد اليوم الخامس عشر من شهر يوليه لرحيل القافلة التي تضم ماسلوفا. وقد اعتزم نكليودوف أن يرحل في اليوم نفسه ليكون ملازما لها، وفي الليلة السابقة لهذا الموعد جاءت أخته الكبرى "نانالي راجوجنسكي" وزوجها إلى موسكو خصيصا لكي يرياه قبل رحيله.

وكانت ناتالي تكبر نكليودوف بعشر سنين، ولها عنده مكانة كبيرة، لأنها أسهمت في تربيته بنصيب مذكور، كما أنه كان في أيام صباه شديد التعلق بها، ووصلت المودة بينهما إلى أن أصبحا أشبه بصديقين متفاهمين، حتى تم زواجها في الخامسة والعشرين من عمرها، وكان هو يومئذ في الخامسة عشرة من عمره. وزاد في صلة المودة بينهما، أنها كانت تهوي في ذلك الحين صديقا له، هو "نيكولنتا أسانييف" الذي مات بعد ذلك بزمن قصير، وكان نكليودوف أيضا يحب هذا الشاب كثيرا، لما جبل عليه من طيبة شديدة ورقة ولين جانب!

ولكن هذه الفترة من العمر انقضت، وانقضى معها ما تميز به صدر شبابيهما من نبل وبراءة، فانغمس كلاهما في الفساد بعاملين مختلفين.. أما هو فقد أفسدته حياة الجندية بما فيها من مجون وأنانية وإطلاق العنان للتكبر والسيطرة والقسوة والشهوات. وأما هي فأفسدها زواجها برجل أحبته حبا ماديا خالصا، ومن أسف أنه لم يكن إلى جانب صفته الشهوية يعرف شيئا عن العالم الروحي وما يزخر به من عواطف شغلت أيام صباها، فتبلد إحساسها، وانطبعت بطابع ذلك الرجل الجامد الحس، حتى نسيت في ذلك الخضم المتلاطم جميع أحلامها السابقة.

وكان زوجها هذا موظفا لا حسب له ولا جاه، ولكنه يحسن الأكل على جميع الموائد، كما يحسن المناورة والمداورة، فظفر بترق سريع إلى حد كبير.

وكان نكليودوف، برغم اجتهاده في مقاومة شعوره، ينفر من زوج أخته ويكرهه، فهو يستثقل سوقية عواصفه وتفكيره، ويحتقر غروره الحيواني وزهوه الفارغ بملكاته المحدودة وأفقه الضيق. وكان يكره فيه على الخصوص خطأ أخته الفاحش بأن أحبت شخصا مثله لا ميزة له، حبا مسفا لا يقوم إلا على اللذة الحسية، وقد ضحت في سبيل إرضائه والدوران في فلكه المعتم بأسمى وأقدس ما في الإنسان، وهو الروح والفكر، فخنقتهما خنقا!

وبلغ من كراهية الأمير لهذا الصهر البغيض، أن نفوره منه امتد إلى "نتائج" هذه المصاهرة التعسة، فهو كذلك لا يحب أولاد أخته منه.

وقد حضر الزوجان وحدهما إلى موسكو، تاركين ابنهما وابنتهما في دارهما، فنزلا بأفخم الفنادق، ثم استقلت ناتالي عربة إلى بيت والدتها المتوفاة، حيث قدرت أن تجد أخاها، ولكن قيل لها هناك أنه هجر البيت إلى فندق سموه لها، فمضت إليه لتوها، فقيل لها أنه خرج، فتركت له رقعة وعادت أدراجها إلى الفندق الفاخر الذي نزلت به وزوجها.

وكانت ناتالي تهتم من أعمال أخيها بأمرين: أولهما زواجه من الفتاة كاتيوشا التي سمعت عنها وعن حياتها السابقة، وثانيهما تنازله عن ملكية ضياعه للفلاحين.

وكان زواجه من كاتيوشا يسرها من بعض الوجوه، فقد أذكرها ذلك ما كان يختلج في جناياهما من نبيل المبادئ والمشاعر أيام الصبا، ولكنها كانت

مروعة من جهة أخرى لزواج شقيقها من فتاة هذا ماضيها، فماذا عسى أن يقوم المجتمع في ذلك؟!

وتغلب عندها جانب الاستنكار على جانب الإعجاب، فهي مبغضة لذلك الزواج مشفقة منه رغبة عنه، عازمة على رد شقيقها عن عزمه هذا ما استطاعت إلى ذلك سبيلا!

أما زوجها، فكان يرى أن ذلك الزواج هو والجنون شيء واحد، ويرى في توزيع الأرض عكس ما تراه ناتالي، فناتالي لا تبالي ذلك.. أما زوجها فيباليه وينقم عليه، ويرى استخدام كل وسيلة لرد نكليودوف عن هذا الطيش الذي لم يكن يتصور له باعثا سوى حب الظهور والرغبة في الاشتهار.. وطالما قال لزوجته وهي تحاوره في هذا:

– أيتنازل عن أرضه للفلاحين؟ إن هذا لهو السفه!

ولما رجع نكليودوف إلى فندقه ليلا، وجد رقعة أخته فوق مكتبه، فتوجه إلى فندقها من فوره، وكان زوجها "راجوجنسكي" يستجم في حجرة مجاورة لتلك التي استقبلت فيها ناتالي شقيقها وحدهما، فعانقته وقالت له:

– لقد ذهبت إلى بيت أمنا، فقيل لي أنك هجرته.

فقال: "ليست بي حاجة إلى كل ذلك الأثاث.. ولهذه المناسبة لك الخيار في أخذ ما تشائين منه".

فقالت: "شكرا لك يا ديمتري... ولكن ما حقيقة تلك القصة التي سمعتها عن زواجك من امرأة لا أمل في إصلاحها وتقويم اعوجاجها؟".

فقال: "ليست هي التي تحتاج إلى تقويم... بل أنا".

فتنهدت ناتالي ثم قالت:

– ولكن هناك يا ديمتري وسائل أخرى غير الزواج لتعويض خطئك.

فقال: "بل أحسب الزواج خير تلك الوسائل قاطبة... إن هذا الزواج سيدخلني في عالم جديد أستطيع فيه نفعا للناس!".

فقالت: "ما أظن أنك ستسعد معها".

فقال: "ليست سعادتي أن هي بيت القصيد".

فقالت: "هذا جميل، ولكني لا أحسبها هي أيضا ستسعد إذا أقدمت أنت على ذلك الزواج. هذا إن كان لها قلب.. بل أحسبها لا ترضى بهذا الزواج قط!".

فقال: "الواقع أنها راغبة عنه زاهدة فيه، ولكن الواجب مقدم في نظري على جميع الاعتبارات!".

فلوت شفتيها يائسة وقالت: "لست فاهمة شيئا مما تعنيه!".

وفي هذه اللحظة دخل الحجرة زوجها، رافع الرأس على عادته منتفخ الصدر والأوداج، وعلى فمه ابتسامة عريضة، فحيى نكليودوف ثم جلس وهو يقول:

– أرجو ألا أكون متطفلا على حديثكما.

فقال نكليودوف: "لست بالذي يخفي على الناس ما يرى أو يفعل".

فقالت ناتالي:

– كنا نتحدث عن مشروعه.

فسأل زوجها متجاهلا: "أي مشروع؟!".

وقال نكليودوف: "مشروع الذهاب إلى سيبيريا مع قافلة المحكوم عليهم لأن فيها فتاة اعتبر نفسي جانيا عليها!".

فقال له: "هل الأمر مقصور على مصاحبتها في رحلتها إلى الليمان؟".

فأجاب بقوله: "كلا.. بل سأتزوجها أيضا، إذا هي رضيت بذلك".

فتظاهر بالدهشة وقال له: "أرجو أن تبين لي هذا الأمر، فإني لم أستطع فهمه من هذه الصورة العاجلة.. فما هي أسباب هذا العزم؟".

فقال نكليودوف: "أسبابه أن انزلاق هذا الفتاة في حياة الخطيئة لأول مرة كان على يدي، فأنا الجاني الحقيقي، وإن كانت هي التي تحملت الحكم، مع أنها بريئة تمام البراءة".

فقال: "هذا عجيب.. كيف يحكم عليها وهي بريئة؟".

وروى عليه بكليودوف قصة الجريمة بالتفصيل، فلما انتهى من ذلك قال له صهره:

– إن هذا لعجيب حقا!. فإنه يندر جدا أن يعاقب بريء.

فقال معقبا: "لقد أصبحت الآن أؤمن بعكس هذا، أعني أنه يندر جدا أن يعاقب جان حقيقي، فالقضاء غير معصوم كما يتوهم الناس. ثم إن الظروف هي التي تجعل المجرمين جناة برغم أنوفهم".

فقال زوج أخته: "هذه هي الفوضوية بعينها ولا شك".

فرد عليه قائلا: "سمها ما شئت، وإنما أقول ما أعتقده حقا.. إن الفقير لن يقتنع بأن السرقة حرام ما دام يرى أن الدولة تسرقه، وصاحب العمل يسرقه؟! هذه السرقات التي يحميها القانون، هي التي شجعته على السرقة وعلى الاستهانة بسلطان الأخلاق والقانون. هذا إلى أن حاجته تدفعه إلى ذلك... ولكنه وحده يعاقب، أما الذين سرقوه فلا يعاقبون"

– ولكن مبادئك يا صاحبي غير عملية. فإن توزيع الأرض بالتساوي على الناس لا يؤدي إلى شيء، لأن الأرض لا تلبث قليلا حتى تعود إلى ملكية الأريب الذي يحسن استغلالها.

– لست أرى تقسيم الأرض، فالأرض لا ينبغي أن يملكها أحد.

– ولكن الفلاح إذا لم يملك الأرض لم يهتم بخدمتها على خير وجه، لانعدام الحافز الشخصي القائم على المصلحة أو المنفعة... فما تقول به يا عزيزي وهم وخرافة. وأني أنصح لك بأن تعيد النظر في آرائك هذه قبل أن تطبقها عمليا، فلا تجني إلا الخسارة والندم!

– أراك تتدخل في شئوني الخاصة!

– ذلك لأنني أرى من واجبي أن أنبهك إلى الصواب، وإلى الدفاع عن النظام الذي تربينا في ظله.

– وكذلك أرى أنا من واجبي أن...

– مهلا!. دعني أتم كلامي. فأنبهك إلى أنني لا أهدف بهذا النصح إلى مصلحة أولادي الشخصية، فالمستقبل مكفول لهم والحمد لله، وفي دخلي

الشخصي ما يكفي حاجتهم، فأنا لا استهدف من نصحي إلا مصلحتك أنت بالذات، في نزاهة مطلقة.

– اسمح لي إذن أن أقول لك: إنني مصر على تصريف شئوني الخاصة على الوجه الذي يروقني.

وكأنما أحس أن زمام أعصابه سيفلت من يده، فطوي هذا الحديث، والتفت إلى أخته يسألها عن صحة أولادها متكلفا الابتسام.

وسرت ناتالي لانتهاء المناقشة الحادة بين زوجها وشقيقها، وأحبت أن تدخل زوجها في الحديث، فجعلت تتحدث عن آخر أخبار المجتمع في بطرسبورج، وأفاضت في الحديث عن مبارزة شائقة جرت بين شابين هناك، وأبدى زوجها سخطه على القانون الذي استبعد المبارزة من عداد الجنايات المعاقب عليها، وهنا قال نكليودوف:

– وماذا عساك كنت تريد القاضي أن يفعل بالمتبارزين؟

– يحكم عليهم بالأشغال الشاقة كالقتلة العاديين.

– لماذا؟

– لأن هذا هو العدل...

– وهل تحسب أن مهمة الحاكم هي إجراء العدل بين الناس؟

– إذن ماذا تظن أنت مهمتهم؟

– أظن أن مهمتهم هي المحافظة على مصالح الحاكمين.

– هذا رأي يبدو غريبا. أليس كذلك؟

– لكنه هو الرأي الصواب.. ولقد بحثت إجراءات القضاء، فتكشف لي الأمر عن مهمة للقضاء غير المهمة النظرية الظاهرية وهي إجراء العدل بين الناس، وتلك المهمة الخفية أو الواقعية، هي المحافظة على النظام الاجتماعي الراهن لمصلحة الطبقة الحاكمة. بدليل معاقبة القضاء لمن يريدون الارتفاع فوق المستوى الخلقي الشائع، ويعملون على تحسين أحوال المجتمع واستكمال حرياته، وأولئك هم المجرمون السياسيون يا سيدي!

– لست على رأيك في المجرمين السياسيين. فهم في نظري جناة أشرار في الغالب كسائر الجناة العاديين!

– هذا رأيك.. أما رأيي أنا، فهو أنني أعرف مجرمين سياسيين هم أرقى خلقا ونفسا من القضاة الذين يدينونهم!

فتجاهل الرجل هذه الطعنة، لأنه كان من رجال القضاء، وقال:

– بل إني أرى القضاء يخدم المجتمع خدمة عظيمة، وذلك بالعمل على إصلاح المجرمين، فالسجن تأديب وتهذيب وإصلاح!

– وهل هذا صحيح؟ هل يصلح المجرم بالسجن والتعذيب؟ أم أن هذا يملؤه حقدا على المجتمع؟. أن القضاء في نظري شيء بشع كريه!

– يخيل إليك أنك نسيت أنني من رجاله؟

– ليس هذا ذنبي... فهل أنا الذي أشرت عليك باحتراف القضاء؟

وقام الرجل إلى النافذة، فأخرج منديله ومسح منظاره، ومسح أيضا دموع الغيظ التي اجتهد في إخفائها عن نكليودوف.. ثم عاد إلى الأريكة، فاحتل مكانه فوقها، وأشعل سيجارة وأخذ يدخنها في صمت.

وندم نكليودوف لأنه قسا على زوج أخته، فكدر بذلك خاطرها، ولاسيما أنه راحل غدا إلى سيبيريا، وأنهما حضرا من العاصمة خصيصا لأجل توديعه. فاستولى عليه الخجل، واستأذن في الانصراف. ثم عاد إلى بيته وهو يقول لنفسه:

– قد يكون كل ما قلته صحيحا، فإنه لم يبد أية حجة مقنعة تدحض آرائي. ولكن هذا لا يبرر أسلوبي في مناقشته، وما أظن إلا أنني أخطأت خطأ كبيرا بالقسوة عليه إلى هذا الحد السخيف، فآذيت شعور شقيقتي المسكينة ناتالي.

الفصل الخامس عشر

الرحلة إلى سيبيريا

كانت الساعة الثالثة هي الموعد المحدد لقيام القطار الذي يقل قافلة المرحلين إلى سيبيريا، وفيهم ماسلوفا، ولما كان نكليودوف قد اعتزم أن يصحبها من السجن إلى القطار، فقد صح عزمه أن يتوجه إلى السجن قبل الظهر. وفيما كان يرتب أوراقه الخاصة، فتح كراسة مذكراته، فأعاد تلاوة صفحات منها، ووقف عندما كتبه قبل رحلته إلى بطرسبورج وقفة طويلة، فإذا هو قد كتب:

"كاتيوشا لا رغبة لها في قبول تضحيتي، فهي تفضل أن تضحي هي من جانبها. وإني لمغتبط بالتغير الداخلي الذي أعتقد أنها صارت إليه".

فأمسك القلم وكتب بعد ذلك:

"كنت لدى ناتالي، ولأنني كنت راضيا عن نفسي غاية الرضا، أبديت شيئا من القسوة نحو زوجها، فغادرته مكتئبا مخزونا. أما منذ غد فإني أعتزم أن أبدأ حياة جديدة. فوداعا أهوائي القديمة، وإلى الأبد؟".

وفي الصباح التالي كان أول شعور خالج نكليودوف حين استيقظ من نومه هو شعور الأسف لما بدر منه في الليلة السابقة نحو زوج شقيقته، فقال في نفسه:

– لا أراني مستطيعا أن أرحل دون الرجوع إليهما كي أمحو تلك السيئة.

ولكنه وجد أنه لم يعد أمامه وقت كاف لذلك، إذ يجب أن يسارع إلى السجن حتى لا يفوته خروج القافلة منه، وألقى نظرة على حقائب سفره، ثم أرسلها إلى المحطة مع بواب الفندق وهو زوج "فيدوتيا" المسجونة مع كاتيوشا إذ كان مقررًا أن يصحبه، ولما كان قطار المسجونين سيبرح المحطة قبل قطار المسافرين العاديين بساعتين، ولم تكن لدى نكليودوف رغبة في العودة إلى الفندق في هذه الفترة، فقد سدد حسابه قبل أن يسافر، وكان الحر ذلك اليوم شديد الوطأة، فالهواء ثقيل ساكن، وقد خلت الشوارع أو كادت إلا من أفراد قليلين يحتمون في ظلال البيوت أثناء مسيرهم. ولما بلغ نكليودوف بناء السجن لم تكن القافلة قد غادرته بعده بما فيها من رجال يبلغ عددهم ٦٢٣ ونساء يبلغ عددهم ٦٤٠ فقد كان ينبغي قبل خروجهم أن تنادى أسماؤهم ويصحبهم الطبيب ليستبعد المرضى منهم والضعفاء.

وكانت أمام السجن ثلة من الحراس المسلحين بالبنادق ونحو عشرين عربة لنقل حقائب المرحلين والمرضى منهم.. وفي زاوية بعيدة نفر من أقرباء المساجين وأصدقائهم على أهبة توديعهم ومحاولة إعطائهم بعض المال خلسة. فوقف ينتظر وسط هؤلاء. وفتحت بوابة السجن الكبرى أخيرا، وسمع صليل السلاسل والأغلال، وخرج الحراس على هيئة سياج يحيط بالمساجين، الرجال منهم في المقدمة يجرون الأغلال والقيود، ثم المنفيون بالملابس نفسها ولكن بغير قيود في أقدامهم، ثم السجينات من النساء في بزة السجن، وأخيرا زوجات المساجين، في ثياب مدنية. وبعضهن يحملن أطفالهن على صدورهن، أو يقدنهم خلفهن.

وبقدر ما كان الصمت سائدا بين الرجال، كانت جلبة الحديث لا تنقطع بين صفوف النساء.. وخيل إلى نكليودوف أنه رأى ماسلوفا وهي تخرج من باب السجن، ولكنها لم تلبث أن غابت عن نظره في زحمة السجينات الأخريات، وأمام الباب من خارج أعيد "التتميم" على السجناء والسجينات، وقد استغرق هذا وقتا طويلا. فلما انتهوا منه، نادى المنادي ببدء المسير إلى المحطة. وكان الموكب طويلا جدا، فركب نكليودوف عربة ليمر على طول الموكب، لعله يرى ماسلوفا ويسألها هل تسلمت الأشياء التي أرسلها إليها!

ولما حاذت العربة صفوف النساء، ميزها بسهولة من بينهن، وقد حملت كيس زادها وملابسها فوق ظهرها وكانت تنظر أمامها لا تتلفت يمنة ولا يسرة، وإلى جوارها فيدوتيا تمشي بخطوات ثابتة، وعلى محياها سيما الرقة والوداعة، ومن الجهة الأخرى امرأة حامل، تجر قدميها جرا، فلما عرفها نكليودوف هبط من العربة وهم بأن يتجه إليها ليحييها ويسألها عن حالها، فاعترضه أحد الحراس، ولما كان نكليودوف قد أضحى بكثرة تردده على السجن معروفا لرجاله والقائمين عليه، فقد حياه الحارس وقال له باحترام:

– هذا ممنوع أثناء الطريق يا سيدي، فإذا وصلنا إلى المحطة أمكننا أن نهيئ لك الفرصة لمحادثة السجينة!

فصعد نكليووف إلى إفريز الشارع، وأشار على الحوذي بأن يتبعه، ثم شرع يمشي راجلا بمحاذاة القافلة التعسة... وكان الناس على طول الطريق يعيرونها التفاتهم. وبينهم من كانوا يتبعونها شوطا ثم يقفون شاخصين بأبصارهم حتى يختفي عنها الموكب في ثنايا الطريق، واشتد الحر فخر نفر من السجناء

صرعى أثناء المسير إلى المحطة، فقد أثر فيهم الخروج المفاجئ من رطوبة السجن إلى لفحة القيظ ولاسيما من كانوا حليقي الرءوس.

ولما وصل نكليودوف إلى المحطة، كان السجناء قد دفعوا في عربات القطار الخاص، التي تزدان نوافذها بقضبان حديدية. وكانت عدة هذه العربات ثماني عشرة، فجعل نكليودوف يتطلع في العربات واحدة بعد أخرى، حتى وصل إلى عربات النساء، فوجد صوتا حارا ينبعث من العربة الثانية، فقد جاء المخاض إحدى السجينات، واستأنف نكليودوف سيره حتى بلغ العربة الثالثة، فما نظر من قضبان نافذتها حتى سكتت النساء والتفتن إليه. وكانت ماسلوفا جالسة بقرب النافذة المقابلة. وأقرب منها إلى الأمير كانت تجلس فيدوتيا الوضاحة الجبين. فلما رأت نكليودوف استلفتت إليه نظر ماسلوفا، فأسرعت إلى النافذة التي وقفت بها، وأمسكت بقبضتها قضبان النافذة. فقال لها:

– هل وصلت إليك الأشياء التي بعثت بها؟

فقالت: "نعم وشكرا لك!".

– هل أنت بحاجة إلى شيء آخر؟

– كلا ليست بي حاجة إلى شيء، وشكرا لك!

وهنا قالت فيدوتيا: "هل نستطيع أن نجد ما نشربه؟"

فقالت ماسلوفا مرددة: "نعم نريد أن نشرب".

– أليس لديكم ماء؟

– لقد وضعوا لنا ماء ولكنه نفد وشرب كله.

فقال: "سأهتم بهذا وسأخاطب فيه قائد القافلة. والآن سنفترق فلا نلتقي قبل سنتين".

وسألته ماسلوفا في دهشة ممزوجة بالغبطة: "أراحل أنت أيضا؟"

فأجابها وقد سرته نظرتها التي تفيض بالسرور:

– سأستقل القطار التالي..

ولم تقل ماسلوفا شيئا، وبعد لحظة صمت أطلقت زفرة عميقة، ثم اقترب في هذه اللحظة صف ضابط فقال لنكليودوف: "إن محادثة المساجين ممنوعة" ثم دوى صفير القطار على إثر ذلك وبدأ يتحرك بين جموع المودعين والمسافرين. وقد بقيت ماسلوفا ممسكة بقضبان النافذة وهي تنظر إلى نكليودوف في ابتسامة تنطق بالانكسار حتى غاب عن نظره القطار!

***

كان لدى نكليودوف ساعتان أخريان قبل أن يستقل القطار. وقد رأى أول الأمر أن يذهب في هذه الفترة لزيارة أخته وترضيتها، ولكن الانفعالات العنيفة التي هزت مشاعره ذلك اليوم جعلته يشعر بالإعياء بحيث أنه استغرق في النعاس عقب جلوسه على مقعد في استراحة الدرجة الأولى بالمحطة، وبقي كذلك حتى أيقظه شخص في ملابس الحجاب وهو يقول له:

– سيدي.. ألست الأمير نكليودوف.. هناك سيدة تطلب رؤيتك

فقفز نكليودوف من مكانه وهو يفرك عينيه، وقفزت إلى ذاكرته الملابسات التي سبقت نومه، من موكب السجناء، ومن العربات ذات النوافذ عليها قضبان من حديد، والنساء الحبيسات فيها، والمسكينة التي جاءها

المخاض هناك دون أن تلقى أي عناية، وتلك المرأة التي اختفى القطار وهي ترمقه وعلى شفتيها ابتسامة انكسار من خلال القضبان الحديدية التي تتعلق بها، وفي ركن من المقصف لمح نكليودوف أخته ناتالي، فصاح بها:

– ما أشد سروري برؤيتك.

– إنني هنا من زمن أبحث عنك في كل مكان.

– لقد نمت وأنا جالس هناك، وأني لسعيد لأنك عثرت بي، فقد كنت مزمعا أن أكتب إليك.

– مستحيل.. وماذا كنت ستقول لي؟

– بالأمس حينما انصرفت من زيارتك خطر لي أن أعود أدراجي لأقدم اعتذاري، ولكنني لم أكن واثقا من استجابة زوجك للموقف، فإنني قد لكمته وقسوت عليه.

– كنت أعلم أنك ستفعل هذا، وكنت واثقة بأنك لم تضمر الإساءة إليه عمدًا.

وجالت الدموع في عينيها، ووضعت يدها فوق يد شقيقها، ففهم نكليودوف شعورها، وأدرك أن حبها لزوجها لا يمنع حبها أيضا لشقيقها، بحيث يزعجها دبيب الخلاف بينهما إزعاجا شديدا، فشكر لها شعورها وغير موضوع الحديث، فتكلم عن موكب السجناء وعن الخمسة الذين سقطوا صرعى بضربة الشمس. وحينئذ قالت له:

– أجل، فليس من هذا بد، وقد عرضت على كاتيوشا أن أتزوجها، ولكنها ترفض في فتور، فهي لا تقبل مني تضحيتي، ولكن هذا لا يعفيني من

مرافقتها على الأقل. وسأكون دائما حيث تكون هي لأمدها بأقصى ما أستطيع من المعونة ولأخفف عنها ما وسعني ذلك.

وسكت قليلا ثم قال:

– إنني لم أتنازل في ضيعة كرزمينسكوي بعد عن أرضى للفلاحين. فإذا حدث لي شيء فإن هذه الأرض تكون لأولادك.

فقالت له: "أرجو ألا تتحدث في هذا الأمر يا ديمتري!".

لكنه استمر في حديثه قائلًا:

– وإذا تنازلت عنها في المستقبل فإني أؤكد لك أن جميع ما يتبقى بعد ذلك من ثروتي فهو لهم، لأنه من المحتمل جدا ألا أتزوج، وإذا تزوجت فقد لا أنجب، وعلى هذا...

فعادت ناتالي إلى مقاطعة كلامه راجية منه ترك هذا الأمر، ولكنه أدرك بوضوح أنها تلقت كلماته بسرور.

***

ودخل نكليودوف عربة القطار، وأطل من النافذة فوجد أخته واقفة تجهد نفسها في فتح موضوع للحديث، ولكن تشعب طرق حياة الشقيقين جعل بينهما ضربا من الغربة قضى على الامتزاج القديم، بحيث شعرت ناتالي بشيء من الراحة عندما تحرك القطار، فأخذت تلوح له بيدها مودعة، كانت الحرارة داخل القطار شديدة، ففضل نكليودوف الوقوف في الممر على الجلوس داخل المقصورة. ولكن الهواء كان راكدا هناك أيضا، فلم يتمكن من التنفس ملء رئتيه إلا حينما خرج القطار من المدينة إلى هواء الريف الطلق، وعاد إلى

مخيلته منظر القتلى الخمسة من السجناء الذين سقطوا بتأثير ضربة الشمس في طريقهم إلى المحطة، فقال محدثا نفسه:

– أجل إنهم قتلى، وقد قتلهم توهم الدولة أن هناك مواقف يسمح فيها بمعاملة الإنسان معاملة غير إنسانية، فلو فكر المسئولون وتدبروا لما أقدموا على تسيير هؤلاء السجناء حليقي الرؤوس في ذلك الحر الشديد بعد أن ألفوا رطوبة السجن مدة طويلة. ولفكروا عشرين مرة قبل أن يهملوا شأن من يخور منهم أثناء السير، ويسمحوا له بالاستراحة في الظل. ولكنهم يقدمون أداء الروتين الحكومي على كل اعتبار إنساني.. وهكذا تجعل الوظيفة الحكومية من الإنسان الطيب القلب كائنا متوحشا لا ضمير له، بسبب عبودية لقمة العيش. أجل هم يجعلون قانونا ما ليس بقانون، وفي الوقت نفسه يتجاهلون القانون الأساسي الأبدي الثابت الذي لا يتغير، ذلك القانون الذي فطر الله عليه قلوب البشر. لهذا أنفر من معاشرة هؤلاء الناس. فالمحبة هي القانون الأساسي للحياة الإنسانية. ولكن مما يدعو إلى الأسف الشديد أنه لا يمكن إجبار إنسان على المحبة كإجباره على العمل مثلا، وعلى هذا النحو انسياب خواطره مع انسياب القطار في طريقه الطويل.

***

قطعت القافلة التي تقل ماسلوفا خمسة آلاف فرسخ حتى وصلت إلى "بيرم" قطعتها بالقطار تارة، وبالباخرة النهرية تارة أخرى، في وسط المجرمين العاديين. وفي تلك المدينة تمكن نكليودوف أخيرا من نقل ماسلوفا إلى قسم المجرمين السياسيين، والرحلة حتى بيرم مؤلمة لها جدا، فتكديس السجناء

في العربات مع قذارتهم، ولكثرة الحشرات الضارة المزعجة، فضلا عن فظاظة الرجال ووقاحتهم الجريئة التي لم تترك لها لحظة للراحة..

وكانت الإباحية قد سادت بين السجينات، وبين الحراس والسجينات، بحيث كانت هذه الحياة، بالنسبة لأية امرأة ولاسيما لشابة وسيمة، جحيما من الحذر والخوف المستمر، إذا لم ترد أن يجرفها ذلك التيار الجارف من الإباحية، لذلك شعرت ماسلوفا بعد نقلها إلى القسم السياسي بشيء من الراحة والأمن كانت في أشد الحاجة إليهما، وكانت تغذية المسجونين السياسيين أحسن وأنظف، والتعرض للعدوان البهيمي أقل، ففي وسعها أن تعيش دون وجل أو خوف من اغتصاب يعيد إلى ذاكرتها ذلك الماضي المجلل بالعار الذي تود لو طواه النسيان إلى آخر الزمان!

ولكن الفائدة الأساسية لهذا النقل كانت في الواقع هي تعرفها إلى أشخاص كان لهم عليها فيما بعد تأثير ناجع حاسم، وكان نقلها يتيح لها مخالطة المسجونين السياسيين، ولكن لا يسمح لها بالركوب، فهي تقطع المرحلة بعد المرحلة على قدميها كالمسجونين العاديين.

وعلى هذا النحو بلغت "تومسك". وكان يرافقها في السير على الأقدام سجين وسجينة سياسيان: هما "ماريا بافلوفنا شتينين"، ورجل يدعى "سيمونسون". وكانت "ماريا" تسير على قدميها، لأنها آثرت أن تتخلى عن مكانها في العربة لسجينة حبلى من سجينات القانون العام. وأما "سيمونسون" فآثر المشي على الركوب، لأنه يأبى ويأنف أن يستفيد من أي امتياز مبني على التفرقة بين الناس بحسب الطبقات.

ولا عجب في أن وجدت ماسلوفا رفقتهما مرضية جدا، بعد حياة الدعارة التي عاشتها سنوات، وبعد شهور في السجن مع المجرمات العاديات، وقد أجدى عليها الغذاء الجيد، ويوم من الراحة بعد يومين من السير الشاق قطعت فيهما خمسين فرسخا. وقد حاز المذنبان السياسيان إعجابها، فإنها لم تر أحد على غرارهما من قبل، وأعجبها على الخصوص الشعور الذي أملى عليهما إيثار المشي على الركوب. وكانت تعلم أنهما ممن ثاروا من أجل الشعب محاولين إنقاذه. وأن من هؤلاء من ضحى بمركزه الاجتماعي وجاهته الكبيرة في غير تردد، ثم ضحى بحريته وحياته في ذلك السبيل.

وكانت تعجب على الخصوص بماريا بافلوفنا، وجذبتها إليها مودة قائمة على التقدير والاحترام. فقد أدهشها أن ترى فتاة شابة مثلها، غنية وجميلة، والدها "جنرال"، ترتدي مع ذلك زي العاملات الفقيرات، وتوزع على من حولها النقود التي يبعث بها إليها شقيقها، وأدركت "ماريا" الأثر الذي تركته في رفيقة سجنها ماسلوفا، وكانت فتاة تنفر من فكرة الحب الجسدي، لهذا كان رفاقها الذين يعرفونها يعاملونها معاملة "زميل".. أما من لا يعرفونها، ويحاولون التحرش بها، فكانت تردهم عن نفسها بقوة ذراعها، وهي قوة كانت تعتز بها كثيرا!

وشرحت لكاتيوشا كيف أصبحت ثورية بسبب التقزز الذي كانت تشعر به منذ طفولتها نحو السلطات وأصحاب السلطان.. وتفضل عليهم غمار الناس من العامة والفقراء الذين يكرهون الشعب. وكانت أمها تزجرها كثيرا لترددها على حجرات الخدم والوصيفات، وعلى المطبخ والإسطبل، في حين لا ترى أبدا في قاعة الاستقبال... ومما قالته لها:

– كنت أسعد بصحبة الطباخات والحوذية أكثر مما أسعد بصحبة السيدات والسادة، لأنهم كانوا يضجرونني، ثم بدأت أفهم وأدرك أن الحياة قد أسيء نظامها. وكنت قد فقدت أمي، ولما كنت لا أحب أبي، لهذا هربت وأنا في التاسعة مع صديقة لي، فاشتغلنا عاملتين في مصنع. ثم تركت المصنع إلى المدينة، حيث قبض علي أنا ورفقائي لإدارتنا مطبعة سرية، فحكم علي بالأشغال الشاقة.

وكانت ماريا قد شعرت في أول الأمر بشيء من الاشمئزاز حين نقلت ماسلوفا إلى القسم السياسي، ولكنها لم تلبث أن آنست فيها مخايل الرقة والطيبة فمالت إليها، وربطهما النفور المشترك من الاتصال بالرجال اتصالًا جسديًا.

***

وكما أثرت صحبة ماريا في ماسلوفا، كذلك أثر في نفسها كثيرا ذلك السجين الآخر سيمونسون، الذي كان يكن لها هوى من نوع جديد.. لقد كان أثناء دراسته قد صارح والده الموظف الصغير بأنه غير مستريح لاحتفاظه بالثروة التي جناها بالفساد واستغلال النفوذ. فغضب أبوه ولم يسع الفتى إلا أن يهجره حتى لا يتدنس بهذا المال المغتصب..

ولما كان يعلم أن جهل الشعب هو علة الفساد كله، ترك الجامعة واشتغل معلما في قرية، ثم شرع يبشر الفلاحين وصغارهم بتعاليم العدل والحرية، حاملا على الظلم والفساد، فقبض عليه.

وجعل ينادي بأعلى صوته أنه لا حق لأحد في اتهامه بشيء، فنفي إلى مقاطعة "أركانجيلسك" ووضع لنفسه عقيدة جعلها نهجا لسوكه في الحياة،

فهو يحارب فكرة الحرب، ويناهض الحكم بالإعدام لأي سبب، كما يناهض القتل أيا كان، سواء قتل الناس أو قتل الحيوان. وكانت له عقيدة خاصة في الزواج والحب. فهو يرى الحب الجسدي علة الأنانية وانصراف المرء عن خدمة سواه ورعايته.

ولم يكن يرى في حبه لكاتيوشا ما يتعارض مع نظريته، لأنه يحبها حبا أفلاطونيا محضا، وقد فهمت ماسلوفا هذا الحب، وازدهاها أن يحبها مثل هذا الشخص، فتعلقت به، وكانت تعلم في الوقت نفسه أن نكليودوف إنما عرض عليها الزواج تكرما منه وتعويضا عن الماضي. في حين أن سيمونسون يحبها لذاتها هي.

ومن جهة أخرى، كان سيمونسون يرى فيها امرأة ممتازة، ذات صفات عالية ومزايا خلقية ومعنوية فائقة، فكان يهمها أن تثبت له صدق ظنه.ولم تكن الفرص تسنح لهما كثيرا بالمحادثة، ولكن حب سيمونسون لها كان يبدو في كل ما يبدو لها واضحا كالشمس، فتصغي إليه بفرح عظيم، وهما يسران جنبا إلى جنب في الطريق الوعر الطويل.

الفصل السادس عشر
بعد العاصفة

لم يستطع نكليودوف أن يرى ماسلوفا في المسافة بين "نيني" و"بيرم" إلا مرتين، وبدت له في المرة الأولى ظاهرة الفتور، حتى لقد أدهشه منها هذا. فلما سألها عن صحتها وعن حاجاتها المادية، كانت تجيبه إجابات جافة. وكان قد لاحظ قبل ذلك فيها آثارا من الحقد لم تستطع التخلص منها.

والواقع أن نفورها منه كان مصدره تأثرها برفاقها الجدد، وكان هذا يزعج نكليودوف، لأنه يخشى إذا هي لم تتفتح نفسها وترتفع روحها المعنوية، أن يدفعها التقزز من نفسها ومن حالتها إلى أن تلتمس العزاء أو النسيان في إدمان الخمر أو التبغ.. فلما كانت المقابلة في بيرم، في استراحة المسجونين السياسيين، لاحظ عليها تبدلا ظاهرا، وبدت كما كانت قبل الرحلة. وأسعده هذا كثيرا، ولاسيما أنها استقبلته بفرح صادق، دون فتور أو نفور، وشكرته كثيرا على عنايته بها، وعلى الخصوص لتكون مع المذنبين السياسيين.

وكان الشهران اللذان استغرقتهما الرحلة حتى بيرم قد سببا لها تعبا وهزالا، فظهرت في وجهها تجاعيد كثيرة حول الفم، وعلى العارضين، حتى لم يعد فيها شيء يذكر بماسلوفا القديمة، الحسناء ذات الدلال. ولم يكن نكليودوف يحبها كحبه القديم، بل هو يحبها الآن حبا يشيع الغبطة في نفسه، بغير رغبة جسدية أو عاطفة أنانية، أجل! ليس حبه الآن إلا مزيجا من العطف والحنان.

وقد ساعده وجودها في القسم السياسي في أن يتصل بالسجناء المثقفين، فتسنى له أن يحكم عليهم من قرب، وكان في بادئ ظهور الحركة الثورية الروسية ينفر من هؤلاء الثوار المتطرفين لاتهامه إياهم بالقسوة والتآمر والحقد، وكذلك لما يبدو عليهم من الكبرياء والعنجهية. فلما خبرهم بنفسه، ولمس الاستبداد الذي يعانونه من قبل السلطات الحاكمة، تحول هذا الشعور القديم إلى إعجاب شديد، ولئن كان نكليودوف يرى في عقاب المجرم العادي شيئا من القسوة، فقد صار يرى في معاقبة المجرمين السياسيين مجانبة ومجافاة صارخة لأصول العدالة المشروعة!

وقد جرت العادة في الجرائم السياسية بأن يقبض على عدد كبير من الناس، أغلبهم من الأبرياء، لا يلقى إلى براءتهم بال، وهكذا يسجنون أو يعتقلون بضع سنين، فيجن منهم من يجن، ويهلك منهم من يهلك! ولا يطلق سراحهم، لأن أحدا لا يهتم بمصيرهم، فحياتهم ومآلهم رهن بنزوة رجل من رجال البوليس، أو قاض من قضاة التحقيق، إن شاء عفا أو شاء نفى.. ولما كان هؤلاء يعاملون معاملة الأعداء في زمن الحرب، فلا غرو أن ينظروا هم أيضا إلى الدولة نظرة العدو، بل نظرة الطير إلى الصائد.. ولا عجب أن يروا أنفسهم كالشهداء، وأن ترسخ عقيدتهم في الحرية والعدل، ويقوى إيمانهم بأنفسهم وبأهمية الدور الذي يقومون به في الحياة، دفاعا عن كل نبيل ومقدس في الدنيا، فهم في نظر أنفسهم أبطال... ومن هنا جاء ما يظن فيهم من الكبرياء! وهكذا عرف نكليودوف بالخبرة الشخصية حقيقة هؤلاء السجناء، وآمن بأنهم ليسوا من أشرار الناس كما يزعم خصومهم، وليسوا من الأبطال كما يظنون هم في أنفسهم، وكما يظنهم بعض الناس. فهم في الحقيقة قوم بسطاء، فيهم اللئيم وفيهم الخسيس. ومنهم من يثور على

السلطان لغرض شخصي، أو عن طموح وغرور. ولكن غالبيتهم تتمرد على السلطة القائمة لباعث شعر به نكليودوف حين كان في الجيش إبان الحرب مع تركيا، وذلك هو باعث امتحان النفس بالخطر. فمعظم الشبان يحبون تحدي الأخطار والمجازفة بحياتهم لحيوية فائضة فيهم، دون أن تردد أو وجل.

***

ولعل أهم ما يميز السجناء السياسيين من بقية السجناء هو احتفاظهم بمستوى خاص أعلى، فهم يلتزمون الصراحة والزهد والتضحية بالنفس والنفيس في سبيل الصالح العام والقضية المشتركة، وانقضت بضعة أيام لم يحصل فيها نكليودوف على تصريح بمقابلة ماسلوفا، ذلك لأن الضباط كانوا ينتظرون مرور شخصية كبيرة من الموظفين للتفتيش، لهذا كانوا يظهرون التشدد. فلما وصل ذلك الموظف الكبير إلى مقر القافلة، أرسل إليه الأمير بطاقته، فدعاه لزيارته، أثناء وقفة من الوقفات اليومية التي تعودتها القافلة في استراحات طريق سيبيريا، وكانت الاستراحة فناء يحيط بثلاث بنايات جمع السجناء كافة في أكبرها، وعلى نوافذها قضبان من الحديد، وخصصت الثانية لرجال الحفظ والحراس. أما الثالثة فمكتب رئيس القافلة وجناحه الخاص. وإلى هذه البناية قاده الحارس، وصعد به ثلاث درجات، ثم دلف به إلى حجرة يملؤها الدخان، ويضيئها مصباح خافت، وكان هناك قرب المدفأة جندي في بذلة قذرة قد انحنى فوق كانون وراح ينفخ في ناره بكل قوته لإعداد الشاي، وتنبه الجندي لدخول نكليودوف، فترك النفخ وأسرع إليه ليخلع عنه معطفه، ثم وقف باب يفضي إلى حجرة أخرى وصاح:

– هذا هو يا صاحب السعادة.

فأجابه من تلك الحجرة صوت فيه ضيق ونفاد صبر، آذنا في دخول الأمير. وقال الجندي لنكليودوف وهو يهم بالعودة إلى النفخ: "أدخل".. فلما دخل الحجرة وقعت عيناه في ضوء المصباح المدلى من السقف على مائدة فوقها بقايا طعام وزجاجتان.. وأمام المائدة ضابط وجهه شديد الحمرة، أشقر الشارب، عرض الصدر. وكانت رائحة التبغ تملا الحجرة فتجعلها خانقة الأنفاس، واستقبله الرجل واقفا، وهو يتفحصه بنظرة تتراوح بين الترحيب والارتياب، ثم قال له:

– أي خدمة أستطيعها لك؟

– أريد أن أقابل سجينة تحت إدارتك.

– سجينة سياسية؟.. هذا ممنوع بمقتضى القانون منعا باتا..

– إنها ليست سجينة سياسية.

– اجلس إذن، إذا سمحت.

فجلس نكليودوف، ثم قال:

– إنها ليست مذنبة سياسية، ولكنها موضوعة في القسم السياسي بناء على رجاء مني، لأن البيئة هناك أحسن.

– طبعا. طبعا. تذكرتها. أنها امرأة سمراء صغيرة القد، أليس كذلك؟.. لست أرى مانعا من مقابلتك لها. هل لك في سيجارة؟

ومد الضابط إلى نكليودوف صندوق سجائره، ثم صب قدحين من الشاي، فتعجله نكليودوف قضاء حاجته بقوله: "كنت أود.. لو..".

فقطع الرجل كلامه قائلا: "إن الليل طويل، وأمامك متسع من الوقت، وسأبعث في طلبها إلى هنا!".

فسأله نكليودوف: "أليس من المستطاع مقابلتها في حجرتها نفسها؟".

فأجاب: "في حجرة المذنبين السياسيين؟. هذا مستحيل.. مستحيل قانونا".

فقال له: "لقد فعلت ذلك مرارا من قبل.. ثم ماذا تخشون؟ أن أمدهم بمهربات وممنوعات؟. ليس في وسعي أن أفعل ذلك!

وسأله الضابط: "من هي هذه السجينة وما جريرتها؟".

فقال: "هي فتاة مسكينة دفعتها الظروف إلى بيت من بيوت الدعارة العامة، ثم اتهمت في قضية قتل، وحكم عليها ظلما، مع أنها من أرق الناس".

فهز الضابط رأسه امتعاضا، ثم سمح لنكليودوف بما طلب، ونادى الجندي المعين "مراسلة" له قائلا له: يا برنوف! اصحب الأمير نكليودوف إلى "باكوفلوف"، وأبلغه أن يدخله إلى قسم المسجونين السياسيين، ويتركه هناك إلى تغيير النوبة..

ولما وصل الأمير إلى باب ذلك القسم، وفتح له، صافحت أنفه رائحة قوية وصوت صليل السلاسل والأغلال، وأحس بما يشبه الغثيان والاختناق وهو يخطو إلى داخله.

وكان سيمونسون أول من لقيه هناك، وكان جالسا أمام الموقد يعالج إشعال نيرانه، فلما رآه الشاب صافحه دون أن ينهض من مجلسه، وقال له وهو ينظر إليه نظرة فاحصة:

– خيرا صنعت إذ أتيت الليلة، فقد كنت أريد أن أخاطبك في أمر ما!

فسأله: "في أي شأن؟".

فقال: "سأقول لك هذا بعد قليل.. فإنك ترى أنني مشغول في هذه اللحظة".

وانصرف إلى الموقد يحاول إشعاله من جديد.

واستدار نكليودوف ليدخل حجرة النساء، فإذا ماسلوفا مقبلة منها حاملة شيئا من النفايات لحرقها في الموقد... فلما رأت نكليودوف احمر وجهها، ووضعت النفايات على الأرض، ومسحت يديها في ثوبها. فمد إليها نكليودوف يده وهو يقول:

– هل كنت تنظفين المكان؟

فابتسمت أجابته:

– أجل. فقد عدت إلى مهنتي الأولى.

وأدرك أنها تشير بذلك إلى عملها في بيت عمتيه أيام صباها، فسكت ودخل معها الحجرة الخافتة الضوء الضيقة بمن فيها، ولم يستطع أن يميز وجوه من فيها إلا بصعوبة لقلة النور. وكانت الحجرة رطبة باردة، لولا أن سيمونسون أفلح أخيرا في إشعال الموقد، فسرى الدفء في الحجرة، وبدأ دخان الشاي يتصاعد من الأكواب والفناجين. ثم وضعت على المائدة –التي

كانت سريرا أول الأمر– ألوان العشاء، من خبز وبيض و"كوارع".. وبدا الجميع يأكلون ويتحدثون..

وسرعان ما نسي السجناء على هذه المائدة متاعب النهار المنقضي، فصاروا أميل إلى المرح، وكانت الأصوات التي تصل إليهم من الزنزانات المجاورة تذكرهم بالظروف القاسية التي يعيشون فيها وتجعلهم أقرب إلى التضامن والتآخي، وكانت الأحاديث بينهم تدور حول كل شيء خلا وضعهم الراهن والمستقبل الذي ينتظرهم في مجاهل سيبيريا!

ولما كان نكليودوف يريد محادثة كاتيوشا على حدة، فقد انتظر حتى ينتهي الطعام، وهو يقطع الوقت بالحديث مع سجين سياسي. وقال له السجين:

– إن أمرا واحدا يشغل ذهني ويحيرني، وهو التفكير في أننا نمشي بالقرب من هؤلاء الذين ضحينا بأنفسنا في سبيلهم، وإننا مع هذا لا نعرفهم بل ولا نريد أن نعرفهم وهم يعاملوننا معاملة الأعداء، إن هذا لعمري لعجب!

فقال سجين آخر: "ليس في هذا من العجب شيء فإن الجماهير لا تحب في العادة إلا السلطان، والسلطان اليوم هو الحكومة، فهم يحبونها ويكرهوننا، فإذا أصبحنا نحن أصحاب السلطان غدا، أحبونا واحترمونا.

فقال السجين الأول: "إنني أظن أن الوصول إلى هذا الهدف ينبغي له أولًا ألا نسبح في الخيال، بل نواجه الأمور على حقيقتها كما تبدو في وضح النهار.. يجب أن نوطن النفس على تضحية كل شيء في سبيل الجمهور ومحاولة كل أمر لتحريره دون أن ننتظر منه شيئا من المساعدة وهو في هذه الحالة من التأخر!".

وحينئذ قالت ماريا بافلوفنا: "ما جدوى هذه المناقشات المستمرة؟".

فسألها نكليودوف: "وأنت ما رأيك؟".

فأجابت: "رأيي أن أناتول على حق، وأننا لا ينبغي أن نفرض مبادئنا على الشعب".

فالتفت نكليودوف إلى كاتيوشا مبتسما وقال لها: "وأنت ما رأيك؟".

فقالت: "أرى أن الشعب الذي يزعم الجميع أنهم يعملون له ومن أجله منسي في الواقع ولا يقام له عند أحد وزن".

فوافقت ميخايلوفنا على هذا، وزمجر بعض السجناء معترضين:

وفي هذه اللحظة نهض سيمونسون الذي كان قد لزم الصمت حتى تلك اللحظة واتجه إلى نكليودوف وقال له:

– هل في الإمكان أن أتحدث إليك على انفراد ؟

فأومأ موافقا، ونهض لتنفيذ هذه الرغبة، فلما رأته ماسلوفا يبتعد تضرج وجهها وأشاحت برأسها، ثم قال له سيمونسون بغير مقدمات:

– هاك ما أريد أن أقول لك.. إنني أعتقد ما دمت أعلم علاقتك بكاتيوشا أن من واجبي أن أخبرك بعواطفي نحوها.

فسأله: "ماذا تعني؟".

فأجاب: "إني أريد أن أتزوجها!".

وسمعت عبارته ماريا بافلوفنا فصاحت وهي تحدق فيه صيحة دهشة اضطراب، ولكنه استمر في حديثه فقال لنكليودوف:

– لقد قررت أن أطلب يدها.

فقال نكليودوف: "وماذا أستطيع أن أصنع لك في هذا الشأن؟ إن الأمر في هذا يرجع كله إليها. فتوجه إليها بهذا الطلب".

فقال الفتى: "ولكنها لن تبت في شيء دون مراجعتك".

فسأله نكليودوف في هدوء: "لماذا؟".

فقال: "لأنها لن تقرر شيئا قبل أن تحسم مسألة علاقتك بها".

فقال له: "المسألة في جهتي غاية في البساطة، فإني أردت أن أفعل ما اعتقدت بأنه واجبي، وأحببت أن أخفف قدر المستطاع من ظروفها الأليمة، وما كنت لأؤثر في حرية اختيارها".

– ولكنك تعلم أنها لا تريد أن تقبل تضحيتك؟

– ليست في الأمر تضحية.

– أنا أعلم أن عزيمتها في هذا الأمر لن تتزعزع.

– إذن لماذا تستشيرني؟

– لأنني أريد أن تنزل عنها.

– وكيف يمكنني أن أرجع عما اعتبره واجبي؟ إن كل ما أستطيع أن أقوله لها هو أنني لا اعتبر نفسي بإزائها حرا، ولكنها هي تتمتع بكامل حريتها بإزائي.

وفكر سيمونسون لحظة، ثم قال له نكيلودوف:

– ليكن.. سأقول لها هذا كله.. ولكن لا تظن أنني متيم بها، فإني أحبها كما أحب أختي أو صديقة قاست كثيرا من الآلام، فلست أريد منها شيئا وإنما أريد أن أكون لها عونًا.

فقاطعه سيمونسون بصوت مضطرب:

– ما دامت هي لا تريد أن تقبل منك هذا العون، فلعلها تقبله مني أنا، فإذا وافقت على ذلك، فإني سأطلب جعلي في المدينة التي ستقضي فيها عقوبتها. فليست السنوات الأربع دهرا طويلا.. وقد تكون إقامتي سببا في تخفيف قسوة سجنها.

فقال له الأمير: "إني لسعيد لأنها وجدت حاميا مثلك".

فصاح سيمونسون: "هذا ما أردت أن أعرفه.. أردت أن أعرف إذا كنت ترى، وأنت الذي تحبها وتريد لها الخير، أن زواجي منها يمكن أن يتيح لها شيئا من العزاء".

فأجابه نكليودوف في حزم: "أجل.. هو ما تقول".

فحدق سيمونسون فيه بنظرات تفيض بحنان الطفولة الذي لم يكن أحد يتوقع أن يراه مرتسما على محيا رجل تغلب عليه الكآبة والتحفظ، وقال:

– لا أفكر إلا فيها، وكل مرادي أن تجد النفس التي شقيت شيئا من الراحة بعد العناء.

ونهض سيمونسون، فتناول يد نكليودوف فشد عليها، وقربها من وجهه، ثم قبلها بخجل... وقال وهو يغادر الحجرة: سأقول لها هذا كله.. وحينئذ قالت ماريا بافلوفنا التي حضرت الحديث:

– إنه عاشق.. ومن ذا الذي كان يقدر أن سيمونسون سيغدو يوما ما عاشقا كصبيان المدارس؟ هذا عجيب.. بل أني لأقر أنه شيء مؤسف له!

فقال لها نكليودوف: "هو عاشق، ولكن ماذا تظنين أنها ترى في ذلك كله؟".

فأجابت بقولها: "إنها فتاة لا يحول ماضيها دون وجود نفس ممتازة بين جوانحها... وإنه ليسعدها أن تؤدي لك خيرا ولو سلبيا، برفض ارتباط حياتك بحياتها.. فزواجك منها سيكون –في رأيها– سقطة لك لن تقال منها... سقطة أسوأ من كل ما تردت فيه من قبل. ولهذا فهي لن توافق على هذا الزواج أبدا!".

فقال لها: "ماذا ينبغي أن أصنع إذن؟ أأختفي من حياتها؟".

فابتسمت ماريا بافلوفنا وقالت: نعم. إلى حد ما.

فبدت الحيرة في وجهه وقال: "وكيف يكون ذلك؟".

فقالت: "إنها فيما أرى قد لاحظت على سيمونسون حبه لها وإن لم يفاحتها في ذلك قط. وقد سرها هذا الحب، ولكنه أيضا أخافها... وعلى جهلي التام بجميع هذه الأمور، يبدو لي أن حب صاحبنا لها حب عادي، كأي حب، وإن كان هو يخاله حبا أفلاطونيا خالصا.. بيد أنك إذا فتشت في أعماق قلبه، وجدت فيه الرغبة الجنسية كامنة".

وهمت ماريا بأن تسترسل، لولا أن قطع كلامها سائلا:

– وماذا عساي أن أفعل الآن؟

فقالت له: "أرى أن تتفاهم معها مباشرة، وفي وضوح. فهل تريد أن أدعوها إليك؟".

فقال: "إذا سمحت بذلك".

وخرجت ماريا بافلوفنا لتدعو ماسلوفا، بينما استولى شعور غريب على نكليودوف وقد أصبح وحده، فهذا الذي كشف له عنه سيمونسون يرد عليه حريته، ويرفع عن كاهله ذلك الالتزام الذي أوجبه على نفسه، والذي بدا له باهظا في ساعات الضعف التي قد تنتابه. ومع هذا فقد شعر بضيق وانقباض، ذلك لأن تصريح سيمونسون رفع عن كاهله عبء العمل الذي كان يزهى بالإقدام عليه أمام نفسه وفي نظر الناس، فإن إقدام رجل حر، ليس عليه لماسلوفا أي التزام، على الزواج منها باختياره، يصغر كثيرا من قيمة تضحية نكليودوف، ويجرده من صفة البطولة.. ولعله يكون أيضا قد أحس بشيء من الغيرة، فقد ألف في المدة الاخيرة فكرة حبه لها، بحيث أصبح يؤلمه التفكير في أنها قد تحب سواه.

يضاف إلى هذا أن سيمونسون قد قدم كل ما بناه نكليودوف من مشروعات للمستقبل، فإنه إذا تزوج من كاتيوشا، لم يبق أمام نكليودوف مبرر للبقاء في سيبيريا، وتعين عليه أن يرسم للمستقبل خطة أخرى.. وفيما هو تائه بين هذه الخواطر، فتح الباب ودخلت كاتيوشا وقالت:

– لقد طلبت إلى ماريا بافلوفنا أن أوافيك؟!

فقال لها: "أجل، فإن عندي ما أقوله لك فاجلسي، لقد تحدث إلي سيمونسون في شأنك".

وكانت جالسة، ويداها على ركبتيها، بادية الهدوء، ولكنها ما سمعت اسم سيمونسون حتى تضرج وجهها.. وقالت له: "ماذا قال لك؟".

فقال: "أنه يريد أن يتزوجك".

فتقلص وجهها، وبدت عليه إمارات الألم، ثم غضت بصرها دون أن تنبس بكلمة..

وعاد هو يقول: "لقد طلب موافقتي ورأيي، فقلت له: إن الأمر في يدك وحدك".

فنظرت في وجه نكليودوف وقالت له: "لماذا هذا؟ لماذا؟".

وتلاقت عيناهما، فقرأ كل منهما في عيني صاحبه أشياء كان يكتمها من قبل... وعاد نكليودوف يسألها: "ما رأيك؟.. ما قرارك؟".

فقالت: "ليست بي من حاجة إلى قرار، فقد قررت كل شيء من قبل".

– إذن أنت تقبلين عرض سيمونسون؟.

– أي امرأة أكون، لو أنني –وأنا السجينة في الليمان– فكرت في الزواج؟ لا أريد أن أهدر حياة سيمونسون أيضا!

– ولكن إذا كان قلبك..

– دعنا من هذا.. أرجو أن تدع هذا الموضوع..

وفرت من الحجرة هاربة..

فاستأذن نكليودوف من السجناء، وخرج يقوده الحارس إلى الباب الخارجي!

الفصل السابع عشر
قلب امرأة

استيقظ نكليودوف في صباح اليوم التالي، ولما لم يسمع غطيط الحوذية الذين كانوا نياما في الحجرة المجاورة، أدرك أنهم غادروها، فأرسل في طلب عربته الخاصة، وجمع حقائبه على عجل، واستقلها مسرعا لعله يلحق بالقافلة التي بكرت بالمسير، وسرعان ما أدركها على الطريق القاحل الذي يكسوه الثلج!

كانت الريح التي تهرب من جهة المدينة تحمل معها دقات ناقوس نحاسي يرى تباعا. فكشف حوذي نكليودوف عن رأسه ورسم على صدره علامة الصليب. ولكن شيخا عليه أسمال بالية أبقى قبعته على رأسه فصاح به الحوذي:

– وأنت أيها الشيخ ألا تصلي؟ ألست مسيحيا؟

فأجاب الشيخ وهو يمضغ كلماته مضغا:

– أصلي؟ ولمن أصلي؟

– يا له من سؤال! لله أيها الرجل! أفلا تؤمن به؟

– وأنت؟ أتعرف؟ أتدري أين هو؟

وكان الشيخ يتكلم في قوة ويقين بحيث خجل الحوذي وتردد لحظة ولكنه حين رأى جميع الأبصار متعلقة به أسرع يجيبه قائلا:

– أتسأل أين هو الله؟.. إن كل إنسان يعلم أنه في السماء.

– ومن أدراك بهذا؟.. هل كنت هناك؟

– إنني لم أذهب إلى السماء طبعا ولكن كل إنسان يعرف أننا ينبغي أن نعبد الله!

فبدأ الشيخ يسخر من الكلام ومن المسيح وديانته فسأله أحد الناس.

– إلى أي الديانات تنتمي إذن أيها الشيخ؟

فقال: "لست أنتمي إلى ديانة ما. ولست أؤمن إلا بشيء واحد، ذلك هو نفسي".

– ولكن كيف تؤمن بنفسك وحدها وأنت عرضة للخطأ والخطيئة؟.. وكيف تفسر وجود كل هذه الديانات؟

– الإنسان درج على الإيمان بسواه لا على الإيمان بنفسه، ومن هنا وجدت الديانات، وأنا أيضا كنت أؤمن بغيري فضللت ضلالا أشد من ضلال من فقد طريقه في قلب غابة لا ينفذ إليها شعاع من النور. وإن الناظر في الديانات على اختلافها ليعجب: ذلك لأن الروح فيها واحد، فالروح في أي إنسان هي الروح في أي إنسان آخر، ولهذا وجب أن يؤمن الجميع بالروح وباجتماعنا جميعا في المستقبل على عقيدة واحدة ونظر واحد.

وكان الشيخ المهلهل الثياب يتكلم بحزم، وهو يتلفت يمنة ويسرة، كتلفت الخطيب على المنبر في الجمع الحافل. فسأله نكليودوف:

– ألك مدة طويلة على هذا المذهب الذي تبشر به؟

– إني أبشر به منذ زمن طويل جدا، منذ أكثر من ثلاث وعشرين سنة، وهم يطاردونني كما طاردوا المسيح وتلامذته من قبل، فتارة يقبضون علي، وطورا يسوقونني للمحاكمة أمام القضاة والكهنة. وبلغ بهم الكيد لي أن حبسوني في مستشفى للمجانين ذات مرة.. ولكن هذا كله لا يبلغ مني شيئا، لأن روحي حرة طليقة.

– وإلى أين وجهتك الآن؟

– إلى حيث يسوقني الحظ، فإني أعمل لآكل، فإذا لم أجد عملا تسولت.

فقدم له نكليودوف قطعة نقود فضية، ولكن الرجل أبى أن يقبلها قائلا:

– إني لا أقبل النقود، بل كسرة خبز لا غير.

– سامحني إذن...

– ليس لي أن أسامحك، فإنك لم تلحق بي إهانة، وأنك لو أهنتني لما بلغني من ذلك شيء.

ورفع غرارته فوق عاتقه ومضى بينما استأنف الأمير رحلته في عربة. وبعد برهة قال له السائق:

– في أي فندق ينزل مولاي؟

– أي الفنادق هنا أحسن؟

– فندق سيبريا أحسنها، ولكن فندق ديكوف لا بأس به أيضا.

– خذني إلى أيهما شئت.

فدخل به الحوذي المدينة حتى بلغ به فندق سيبيريا فنزل له، وهناك بدل ثيابه على عجل بعد أن استحم في حمام عام وتوجه إلى مقر حاكم المقاطعة، فألفاه متوعكا لا يستقبل أحدا، ولما ألح في إدخال بطاقته إليه، أجيب إلى طلبه واستقبله الرجل، وكان أحمر الأنف، أصلع الرأس عليه كساء من الحرير الأصفر، مما يلبس في الحجرات: وفي يده سيجارة، وأمامه قدح من الشاي مطعم بالفضة المنقوشة. فقال الأمير:

– أرجو المعذرة لاستقبالي إياك على هذه الهيئة، فذلك خير على كل حال من عدم استقبالك على الإطلاق.. فإني معتل الصحة قليلا ولا استطيع الخروج.. ولكن إلى أي شيء نعزو شرف حضور الأمير إلى هذا الركن النائي من الأرض؟

فقال: "إني أرافق قافلة للسجناء، فيها امرأة قريبة الصلة بي.. ومن أجلها جئت إليك".

وكان هذا الحاكم ممن يمزجون الرحمة بالواجب الحكومي، لطيبة قلبه، فقال له نكليودوف:

– إن هذه السجينة قدمت التماسا للقيصر، وقد قيل أن الجواب سيصل إلى هنا.

فقال الحاكم: "لم يصل شيء من هذا بعد".

– إذن أرجو أن تحجز السجينة هنا إلى أن يصل القرار.. وأن تسمح لي بزيارة سجين سياسي مريض!

– هذا مستحيل كل الاستحالة.

وبعد رجاء من الأمير، وعده بالنظر في الأمر، وطلب إليه أن يعود إليه بعد حين. فخرج الأمير وتوجه من توه إلى مكتب البريد، فوجد باسمه بريدا ضخما وصحفا ومجلات وخطابا مسجلا. فجلس فوق مقعد بالمكتب وفض الخطاب المسجل، فإذا هل يحمل من صديق له صورة قرار العفو عن كاتيوشا، الذي أصدره القيصر.. أما النسخة الأصلية فقد أرسلت بالطريق الرسمي إلى حاكم سيبيريا، وكان هذا هو الخبر السعيد الذي طال انتظاره والسعي إليه والقلق عليه. وبدأت الأفكار المتباينة تتزاحم على رأسه، عن علاقته بكاتيوشا، وما يجب عليه نحوها، وعن أثر تصريح سيمونسون عنها وعن رغبته في وصل حياته بحياتها عن طريق الزواج. فهل ستقبل الفتاة ذلك الشاب أم سترفضه؟

وأخيرا قال لنفسه: "إن ذلك كله ليس ذا بال، وأن المهم الآن هو إبلاغ الفتاة النبأ السعيد الذي يخصلها من ظلمات السجن الشاق الذي وقع عليها ظلما".

وتوجه إلى السجن وطلب إلى مديره مقابلة كاتيوشا، ولكن المدير رفض إجابته إلى ذلك، فعاد إلى الحاكم العام للمقاطعة، ولم يكن الحاكم قد تلقى العفو رسميا، بيد أنه رخص له في مقابلته السجينة، فرجع إلى السجن وظفر هذه المرة بمقابلة كاتيوشا في مكتب المدير.

وما إن دخلت عليه حتى تحرك قلبه وجاشت نفسه، فنهض للقائها، فاحمر وجهها ثم اصفر، وكانت يداها تعبثان بأطراف قميصها في عصبية ظاهرة، وحدقت في الأمير لحظة ثم غضت بصرها، فقال لها:

– أتدرين أن العفو عنك قد صدر؟

فقالت: "أجل. بلغني هذا من المدير الآن".

فقال: "متى وصل الأمر رسميا، فسيتسنى لك أن تغادري السجن لتسكني حيث تشائين... وسنتحدث في هذا فيما بعد".

وشد ما كانت دهشته إذ قالت له: "وفيم الحديث؟ إنني سأتبع سيمونسون".

وبرغم اضطرابها وجيشان صدرها بالانفعال، كانت تنظر في عيني نكليودوف، وتتكلم بسرعة. فقال لها:

– ما دام الأمر كذلك...

– إنه يريد أن أعيش معه.

وكأنما أحبت أن تخفف من وقع كلامها عليه فاستطردت قائلة:

– أليس هذا خير ما يمكن أن أصبو إليه؟

فقال نكليودوف لنفسه: "إما أنها تحب سيمونسون ولا تريد مني تضحية. وإما أنها تحبني أنا ولهذا تريد أن ترتبط بسيمونسون".

وتضرج وجهه فسألها على استحياء:

– أتحبينه؟

فقالت: "أنا أحبه؟. ليس هذا بيت القصيد، فليس سيمونسون رجلا مثل سائر الرجال".

– أتظنين هذا؟

– عفوا.. ولكني أحسب أن من الخير أن تستقر الأمر على هذا الوضع. فإنك بهذا تغدو حرًا سعيدًا.

– لم أكن أتوقع منك هذا القول.. فلماذا تصرين على إضافة آلام أخرى إلي ما عانيت فيما مضى؟

– لست أفهم نفسي.. فكل مرادي الآن هو ألا ألحق بك الضرر. وأما أنا، فلا يسعني إلا أن أكون شاكرة لك ما أسديت إلي من فضل.

وهمت أن تسترسل،ولكن صوتها اختلج.. فقال لها:

– لا ينبغي أن تزجي إلي شكرا، فلست أدري أينا أعظم على صاحبه يدا.

فقالت بهدوء: "علم هذا عند ربك".

ولمعت عيناها ببريق غريب... وقال لها بتأثر:

– إن قلبك لكبير... فما أنبلك من امرأة.

فأشرق وجهها المخضل بالدمع بابتسامة رقيقة...وتلاقت عيناهما، فقرأ في هذه النظرة الصافية الحانية، وفي هذه الابتسامة المبتئسة الدامعة آية ذلك الحب الذي قدر أنها تحمله له، ومن أجله أصرت على الابتعاد عنه، وإمعانا في ذلك قررت أن تقبل يد سيمونسون. لقد كانت سعيدة شقية في آن.. سعيدة لأنها نهضت بما أملاه عليها الواجب نحو حبيبها، وشقية لأنها ستفارق هذا الحبيب، ومن أجله، وضغطت يده مرة أخيرة، والتفت بدثارها، ثم ابتعدت مسرعة حتى غابت عن ناظريه.

الفهرس